

3
أثر العرب في الحضارة الأوربية

بقلم

عباس محمود العقاد

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر



مَكْتَبَةُ لِسَانِ الْعَرَبِ

رابطہ بدیل
lisanerab.com

أ. علاء الدين شوقي

www.lisanarb.com

عباس محمود العقاد

أثر العرب في الحضارة الأوربية

مكتبة الطبع والنشر

دار المعارف

بصره



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

lisanerab.com

رابطہ بديل

تمهيد

موضوع هذا الكتاب الوجيز ينقسم إلى قسمين : أولها أثر العرب في الحضارة الأوربية من أقدم أزمانها ، والثاني أثر أوربة الحديثة في النهضة العربية العصرية .

وسيرى القراء أننا شملنا بالكلام أمماً غير الأمم التي تُعرف باسم العرب في مصطلحات اللغات الشائعة على الألسنة والأقلام .

لأننا قد لاحظنا في ذلك أمرين : أحدهما أننا رجعنا بأولئك الأقوام إلى أصلهم القديم في الجزيرة العربية ، أخذاً بالقول الراجح الذي يرى أن جزيرة العرب هي أصل الساميين أجمعين ، ومنهم الكلدان والسريريون والكنعانيون والعبريون .

والأمر الثاني أننا رجعنا بالفضل في نهضة الأمم الإسلامية إلى « الجوى الأدبى » الذى أحاط بها وامتزج ببواعث النهضة فيها . فالفرس ليسوا من السلالة السامية أو العربية ، ولكنهم لم ينجبوا الفلاسفة والعلماء وكبار الشعراء قبل امتزاجهم بالدعوة الروحية التى انبثقت من قلب الجزيرة العربية . فمن الحق أن يقال إن « الجوى الأدبى » الجديد الذى أحاط بهم بعد قيام الدولة الإسلامية كان له فضل محدود ينسب إلى تلك الدولة .

والكلدان والسريريون كانوا فى دولة العرب رواد البحث والترجمة

والدراسات العلمية والطبية على التخصيص ، ولكن هؤلاء الكلدان والسريان كانوا يعيشون بثقافتهم اليونانية هذه في ظل الدولة الرومانية الشرقية ولم تنبعث من كتبهم ولا معلوماتهم نهضة فكرية كالنهضة التي جاشت بها أرم الشرى بعد فتوحات العرب وانتشار الدعوة إلى النظام العالمى الجديد ، وهذا عدا ما نعلم من أن الكلدان والسريان ينتمون إلى الساميين ولا يحسبون فى عداد الآريين أو السلالات الأخرى . فلا تعزز أعمالهم أقوال القائلين إن الساميين من أصولهم القديمة خلو من بواعث التمدين والتفكير .

ولاحظنا مع هذا أن قوة التفكير تقاس بالقدرة على فهم ما يبتكره الآخرون كما تقاس بالقدرة على ابتكاره ، فلا تتمم أمة بالعجز عن التفكير إذا استطاعت أن تفهم مبتكرات الفكر فى أمة أخرى وشعرت بالحاجة إلى فهمها وخلقت لها جواً تروج فيه وتشغل به أذهان أبنائها ، وبخاصة إذا علمنا أن الابتكار المحض لم يكتب قط لأمة من الأمم ، ولم يعهد قط فى ثقافة قومية أنها كانت محض ابتكار خلا من كل استعارة واقتباس .

وليس من همنا فى هذا الكتاب أن ننفي مزايا الشعوب والسلالات . فإن هذه المزايا حقيقة لا شك فيها ولا سبيل إلى إنكارها ، ولكننا اهتممنا برد هذه المزايا إلى عوامل طبيعية وأسباب تاريخية ، تسرى على كل قوم إذا تعرضوا لها ، ولا ينفرد بها الساميون أو غير الساميين .

وبهذا الميزان الصحيح تنعقد الموازنة بين الحضارة العربية وسائر الحضارات فلا تشيل فى الميزان .

من هم العرب ؟

من هم العرب ؟

هم أمة أقدم من اسمها الذي تعرف به اليوم ، لأنها على أرجح الأقوال أرومة الجنس السامي التي تفرع منها الكلدانيون والآشوريون والكنعانيون والebraييون ، وسائر الأمم السامية التي سكنت بين النهرين وفلسطين وما يحيط بفلسطين من بادية وحاضرة . وقد تتصل بها الأمة الحبشية بصلة النسب القديم مع اختلاط بين الساميين والحاميين .

فهذه الأمم كلها تتكلم بفرع من فروع لغة واحدة هي أصل اللغات السامية ويدل على تلك اللغة اشتراك فروعها في بنية الفعل الثلاثي الذي انفردت به بين لغات العالم بأسره ، وتشابه الضمائر والمفردات وكثير من الجذور والمشتقات . فضلا عن التشابه في ملامح الوجوه وخصائص الأجسام ، قبل أن يكثُر التزاوج بينها وبين جيرانها من الأمم الآسيوية أو الأفريقية .

وإذا كان لهذه الأمم جميعاً أصل واحد فأرجح الأقوال وأدناها إلى التصور أن يرجع هذا الأصل إلى الجزيرة العربية لأسباب كثيرة :

منها أن التحول من معيشة الرعاة إلى معيشة الحرث والزرع والإقامة في المدن طورته من أطوار التاريخ المعهودة ، وليس من أطواره المعهودة أن يتحول

الناس إلى معيشة الرعاة الرحل في بواى الصحراء بعد الإقامة في الحواضر
والبقاع المزروعة

ومنها أن الجزيرة العربية — في عزلتها المعروفة — أشبه المواقع بالمحافظة
على أصل قديم ، وهي كذلك أشبه المواقع أن تضيق فيها موارد الغذاء عن
سكانها فيهجروها إلى أودية الأنهار القريبة .

ومنها أن اتجاه الهجرة من ناحية البحرين وناحية الحجاز متواتر في
الآزمنة التاريخية القريبة والبعيدة ، وأقربها ما حدث بعد الإسلام في وقت
واحد من زحف العرب على العراق وزحفهم على الشام في عهد الخليفة
الصدىق . وليس لدينا ما يمنع أن يكون التاريخ الحديث دليلاً على التاريخ
القديم ، ولا سيما إذا خلا التاريخ كل الخلو من رواية يقينية أو ظنية تومى
إلى هجرة النهرين وسكان الأودية إلى الجزيرة العربية في زمن بعيد أو قريب
فإن السمرين سكان ما بين النهرين الأقدمين كانوا هنالك قبل عشرة
آلاف سنة ، ولم يصل إلينا قط خبر عن هجرتهم إلى مكان في الجزيرة
العربية ، كأننا ما كان موقعه من تلك البلاد ، بل ثبت على التحقيق أن
الساميين هم الذين هجروا مواطنهم إلى ما بين النهرين حيث قامت العواصم
التي تسمى بالأسماء السامية كمدينة بابل « باب الله » أو « باب أيل » .

أما الرأى الآخر الذى يرجح أن الأمم السامية نشأت في بقعة من الأرض
غير الجزيرة العربية فأشهر القائلين به هو الأستاذ « جويدى الكبير »

العالم الإيطالى المعروف فى القاهرة ، وأقوى الحجج التى يستند إليها مستمدٌ من مضاهاة اللغات السامية وكثرة أسماء النبت والأمواء فى لهجاتها الأولى ، وعنده أن اشتراك اللغات السامية فى هذه المفردات مما يدل على أرومة نشأت فى بلاد مخصبة كثيرة الزروع والأنهار ، ولم تنشأ فى صحراء العرب وما شابهها من البقاع .

وهذا الرأى ضعيف لا يقوم بالحجة الناهضة ولا تؤيده حالة الجزيرة العربية قبل الكشوف الحديثة بزمن طويل ، فضلا عن حالة الجزيرة التى تدل عليها تلك الكشوف فى طبقات الأرض وعوارض الجو وعلم الأجناس فالروج الفيحاء والبقاع المخصبة لم تكن مجهولة قط فى جنوب الجزيرة ولا فى جوانبها الشرقية الشمالية عند البحرين ووادى اليمامة ، وهى البقاع التى مر بها المهاجرون من قديم الزمن تارة من اليمن إلى البحرين إلى ما بين النهرين وبادية الشام ، وتارة من البحرين بداءة إلى ما وراءها من المشارف الشمالية .

ولم تزل بقاع اليمامة إلى ما بعد الإسلام مشهورة بالمراعى الواسعة والعيون الثرارة والأمطار الغزيرة والروج المعشبة التى تخلفت مما هو أخصب منها وأعمر بالإنسان والحيوان فى أقدم الأزمان . وقد لاحظ الرحالة الألمانى شوينفرت أن القمح والشعير والجاموس والمعز والضأن والماشية وجدت فى حالتها لا بددة فى اليمن وبلاد العرب القديمة قبل أن تستأنس فى مصر والعراق وتبين من الكشوف العلمية فى العهد الأخير أن الجزيرة العربية

تعرضت لأدوار الجفاف وطوارئ الزلازل منذ عصور موعلة في القدم ، فكان القفر فيها يجور على الخصب في أدوار طويلة بعد أدوار أخرى على التدرج ؛ قبل أن تجور الصحراء على معظمها في عصور التاريخ .

فخانة الجزيرة العربية كافية لتفسير التشابه بين لغات الساميين في ألقاظ الخصب والتمرات والأمواء، ولكن الرأي الآخر - رأى الأستاذ جويدى - لا يفسر لنا الفرض القائل بهجرة العرب مثلا مما بين النهرين ، أو من الشام ، إلى قفار الصحراء . وهو فرض لا دليل عليه من الروايات القديمة ولا من الأحوال المرجحة على حسب التقدير المعقول ، ولا من السوابق المألوفة كما رأينا الأمثلة عليها في التاريخ الحديث .



وعلى هذا يصح أن نعتبر أن سلالة العرب الناشئين في جزيرتهم الأولى قد سكنت أو اسط العالم المعمور منذ خمسة آلاف سنة على أقل تقدير وأن كل ما استفاده الأوربيون من هذه البقاع في هذه العصور ، هو تراث عربى أو تراث انتشر في العالم بعد امتزاج العرب بأبناء تلك البلاد . وليس هذا التراث بقليل .

لأنه يشتمل على كل أصل عريق - عند الأوربيين - فى شئون العقل والروح وأسباب العمارة والحضارة . وهى (١) العقائد السماوية و (٢) آداب الحياة والسلوك و (٣) فنون التدوين والتعليم و (٤) صناعات السلم والحرب وتبادل الخيرات والتمرات .

العقائد السماوية

والأديان الكتابية هي أول ما يخطر على البال حين يجرى الكلام على العقائد السماوية التي تلقاها الأوربيون من تراث الجزيرة العربية ، أو من تراث الأمم السامية .

لأن الأديان الكتابية الثلاثة — وهي الموسوية والمسيحية والإسلام — ظهرت وانتشرت بين سلالات الجزيرة العربية ، على اختلاف موعدهم من الهجرة منها إلى الأقطار التي تليها .

ولكننا لا نغنى هذه الأديان حين نتكلم في هذا الفصل عن العقائد السماوية ، لأنها من وقائع العيان التي لا تزال قائمة في وقتنا الحاضر بغير حاجة إلى استقراء التواريخ ومضاهاة الأخبار والروايات .

وإنما عيننا بالعقائد السماوية كل ما عرفه الأوربيون الأقدمون عن السماء وأفلاكها ومداراتها، وسلطانها المزعوم على الأرضين ، وطوالها النافذة في جميع الأحياء ، سواء ما انطوى منها تحت عنوان « علم الفلك » أو ما انطوى تحت عنوان الكهانة والتنجيم .

فمما لا خلاف عليه أن العرب نشأوا في بلاد أصحى سماء وأسطع فضاء من البلاد الأوربية ، وأنهم سبقوا أبناء البلاد الغائمة والآفاق المحجبة إلى رصد النجوم ومراقبة المطالع والمغرب في القبة الزرقاء ، لأنهم على سهولة الرصد

عندهم كانوا في حاجة دائمة إلى توسم المطر وترقب الأنواء والخبرة بمواقيت الإدلاج والأسراء ، في رحلاتهم الطويلة بالصحراء .

ووافق علمهم هذا علم المدائن والأمصار التي قامت بين النهرين ، إذ من المحقق أن تقسيم الأشهر والأيام كما شاع في بلاد الكلدانيين والساميين قد كان عليه طابع اللغة العربية القديمة ، وأن النسب في حساب الأشهر والأسبوع في حساب الأيام كانا من الخلفات السامية في تلك البلاد ، وظلت بقاياها بين العرب في الصحراء إلى ما بعد الإسلام .

وكأنما ما كان الرأي في الاقتباس من الحضارات السمرية بين النهرين فليس « الأسبوع » من عمل السمريين ولم يظهر بينهم قبل ظهور البابليين . وعن هذه الأقوام العربية الأولى تلتقى الأوريون عقائدهم عن الأسبوع وأرباب الأيام وساطانها على الأحياء أو على الأحداث والزروع والضروع .

ولا تزال أسماء الأيام الإفرنجية تحمل طابع العقائد « السماوية » كما كان يُعتقد لها أسلاف العرب المعرقون في القدم ، وتتداولها لغات الغربيين إلى هذه الساعة التي نحن فيها .

جاء في الجزء الأول من إخوان الصفاء عن أوائل ساعات الأيام : « إعلم أن الليل والنهار وساعاتهما مقسومة بين الكواكب السيارة ، فأول ساعة من يوم الأحد للشمس ، وأول ساعة من يوم الإثنين للقمر ، وأول ساعة من يوم الثلاثاء للمريخ ، وأول ساعة من يوم الأربعاء لعطارد ،

وأول ساعة من يوم الخميس المشتري ، وأول ساعة من يوم الجمعة للزهرة ،
وأول ساعة من يوم السبت لزحل ... »

ونضرب صفحاً عن تقسيم الليالي والساعات لأن تقسيم أوائل الأيام
يعنيننا فيما نحن فيه .

فيوم الأحد يعرف في الإنجليزية باسم « سنداى » Sunday
أو يوم الشمس .

ويوم الإثنين يعرف فيها باسم « منداى » Monday أو يوم القمر .
ويوم الثلاثاء يعرف فيها باسم ثيوزداى Tuesday أو يوم « ثيوز »
إله الحرب عند أم الشمال الأولى ، وتوضحه التسمية الفرنسية لهذا اليوم
لأن يوم الثلاثاء يعرف فيها باسم Mardi أو يوم مارس وهو المريخ .

ويوم الأربعاء يعرف في الإنجليزية باسم ودنزدای Wednesday أى يوم
« ودين » إله المعارف والفنون عند قدماء التوتون ، وتوضحه التسمية
الفرنسية أيضاً لأن يوم الأربعاء يعرف فيها باسم Mercredi أو يوم عطارد
وهو بالفرنسية Mercure وبالإنجليزية mercury

ويوم الخميس يعرف في الإنجليزية باسم ثورزداى Thursday أو يوم
« ثور » إله الرعد عند قدماء التوتون ، وتوضحه التسمية الفرنسية لأن يوم
الخميس فيها يعرف باسم jendi أى يوم المشتري أو الإله جوبيتر jovis dies
ويرجع هذا الإسم إلى اسم « ياهو » jehova الذى يشير به أبناء الأمم

السامية إلى الله ، ولا يزال كثير من العرب حتى اليوم يستغيثون بالله فينادون « يا هو ! » .

ويوم الجمعة يعرف في الإنجليزية باسم « فرايداي » Friday أو يوم الربة فريج Frig زوجة عطارد ومقابلة الزهرة في صفاتها ، وتوضحه التسمية الفرنسية ، لأن يوم الجمعة فيها يعرف باسم يوم الزهرة Vendredi أو يوم فينوس .

ويوم السبت يعرف في الإنجليزية باسم ساترداي Saturday أو يوم زحل Saturn في تلك اللغة إلى اليوم .

ويتبين من معانى أيام الأسبوع عندهم أن عقائد التنجيم التي أخذوها عن السلالات العربية قد تغلغت في شعوبهم الأوربية من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، وهي العقائد التي ترتبط بالمعيشة اليومية وطوال الأوقات وسلطان الأفلاك العليا على الأحياء وحوادث الأيام .

فهي على هذا أكبر شأنًا وأشد إيمانًا في الحياة من تسمية مقتبسة من تقويم منقول .

وقد اصطبغت حياتهم العاطفية بما تلقوه من أسماء تلك الأرباب وخصائصها فشملت الشعور بالقداسة والشعور بالغضب والشعور بالحب والغرام والجمال .

فاسم الإله الأكبر jove أو jehova مأخوذ كما قدمنا من اسم «ياهو» الذي يجري على أسنتنا إلى أيامنا الحاضرة .

وإله الغضب والحرب عندهم مأخوذ بلفظه ومعناه عن الساميين الأقدمين لأن Mars هي تصحيف ظاهر لكلمة المريخ .

وربة الحب أو العذراء الفاتنة «فينس» هي تصحيف كلمة «بنت» السامية ، وكانت تكتب عندهم بالباء ثم صحفت إلى الفاء كما يقع ذلك في كثير من الأسماء ، وهكذا فعلوا بأسماء الزهرة الأخرى فصحفوا عشتار إلى «استار» أى النجمة ، وهي عتار في اللغة العربية اليمانية القديمة ، ثم عرفها الساميون في شمال الجزيرة العربية باسم عشتار وعشتروت .

وكذلك أخذوا ادونيس Adonis إله الفتوة والجمال من «ادوناي» بمعنى السيد أو الرب عند الكنعانيين .

فهم قد مزجوا معيشتهم اليومية وحياتهم العاطفية بعقائد السماء التي تلقوها عن السلالة العربية ، ولم يقصروا النقل على علم الفلك ولا أزياج النجوم ، فانهم — كما سيلي في بعض فصول هذا الكتاب — قد ظلوا ينقلون عن العرب في هذا العلم إلى ما بعد الإسلام بزمن طويل ، وقد بقيت في لغاتهم عشرات الأسماء العربية للكواكب والمصطلحات الفلكية ، بتحريف قليل أو بغير تحريف .

آداب الحياة والسلوك

وقد كانت المدرسة الكبرى المعنية بآداب الحياة والسلوك — بين مدارس الفلسفة التي اشتهرت باسم « الفلسفة الاغريقية » — هي مدرسة شرقية في أصول أسانذتها، وأصول مبادئها، وأصول تفكيرها التي انفردت بها بين أصول التفكير الغالبة على عقول حكماء الاغريق الأصلاء .

ونعني بتلك المدرسة الشرقية مدرسة الرواقيين .

فقد كان رأس هذه المدرسة « زينون » من أصل « كنعانى » أو فينيقى كما كان الاغريق يسمون بعض الكنعانيين ، وكان مولده على الشاطئ الشرقى من جزيرة قبرس فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد .

وكان من أقطاب هذه المدرسة من ولد فى صيدا ومن ولد على ضفاف نهر العاص أو نهر الدجلة .

وكان لها شأن جليل فى الثقافة الاغريقية ثم فى الثقافة الرومانية ثم فى المدرسة الافلاطونية التى نشأت بالاسكندرية ، وبقى لها هذا الشأن فى تفكير الأوربيين وآداب سلوكهم إلى عصور النهضة والاصلاح الدينى وما لازمه من ضروب الإصلاح الأدبية . فكانت الفلسفة الرواقية هدى لطلاب الاصلاح فى طلب الكمال وطلب السعادة وطلب الحكمة العملية فى الحياة .

وحسبك شاهداً على مكان هذه المدرسة من السيطرة على الآداب الأوربية في دولة الرومان أن سنিকা وشيشرون وايبكتيتس ومارك اورليوس كانوا من أتباع الرواقين ، وإنها المدرسة التي طاولت كل مدرسة أخرى في أمد البقاء وإتساع النطاق ، فلم تضارعها في طول بقائها واتساع نطاقها مدرسة فلسفية نشأت على عهد الإغريق والرومان ، وإن النمط الرواقى في الحياة كان ولم يزل بين الغربيين قدوة الرجل الكامل - أو طالب الكمال - إلى عهد ديكارت الفرنسى وامرسون الأمريكى ، ومن تتلمذ عليهما إلى هذا الجيل .

وقد كان طابع الذهن السامى - ونكاد نقول طابع الجزيرة العربية - ملحوظاً على كل ما علمته المدرسة الرواقية في باب الغيبات أو باب العلم الطبيعى أو باب الأخلاق

فكانت تدين بالتوحيد ونسبة الفعل كله إلى الله والانفعال كله إلى المادة وقد تميل أحياناً إلى وحدة الوجود فيما طرفته من بحوث ما وراء الطبيعة : وكانت ترى في باب العلم الطبيعى أن الشيء الموجود هو الذى يفعل أو ينفعل ، ولا وجود لغير ذلك من الفروض المثالية أو الفروض الخيالية فكل ما فى الكون مرجعه إلى الحس والتجربة وقدرة الفعل والانفعال . ولعلمهم كانوا فى هذا الباب رواداً سابقين للمدرسة التجريبية التى ظهرت بعدهم بألنى سنة . ويعزو « سترابو » الجغرافى الكبير إلى موخوس الصيداوى أنه أول من قال بالجوهر الفرد قبل حرب طروادة . ويستند فى هذا

انخبر إلى رواية بوسيدنيوس الفيلسوف الرواقى المعروف ، وهو سبق له معناه في عصر الكلام على الجوهر الفرد والقبلة الذرية .

أما في الأخلاق فلا قيمة عندهم للبحث الفلسفى إن لم يكن له نفع في طلب الحياة الفاضلة ونشدان السعادة والتطلع إلى الكمال ، ومساك الأخلاق المثلى عندهم ضبط النفس وتربية الإرادة واجتناب المطامع والشهوات .

وليس من العسير تعليل هذه النزعة الرواقية أو هذه الفلسفة العربية القديمة ، لأنها تنبعث من مصادر ثلاثة كل منها خليق أن يتجه بها هذا الاتجاه : وهى سلطان القبيلة ، وسلطان الدين ، وسلطان الدولة والنظام

فالقبيلة تفرض على أبنائها حياة الصبر والشظف والمحافظة على التراث القديم ، وتجعل كل فرد من أبنائها مسئولاً عن القبيلة بأسرها ، فعليه من أجل ذلك حساب عسير فى كل صلة بينه وبين سائر الأفراد من تلك القبيلة أو من أبناء القبائل الأخرى ، وغاية ما يحذر الرجل فى ظل هذا السلطان أن « يخلع » فيصلح كما يسمونه خليعاً لا حساب عليه .

ثم يأتى سلطان الدين والكهانة بعد انتظام القبيلة فى دور الحضارة والعرف الموروث ، ولن تفترق الكهانة القديمة عن المراسم والآداب التى تلتزم فى آداب المعيشة وآداب السلوك ، ويتعرض الخارج عليها لخطر جسيم يضارع خطر « الخلع » أو يزيد عليه ، لأنه يخلعه من حظيرة قومه وحظيرة الله على السواء .

ويتمشى مع سلطان الدين سلطان النظام والقانون في الدولة المهيبة قائماً على ركنين من وشائج العصبية وفرائض العبادة ، أو قائماً على الحاسة الموروثة في عنصر النسب وعلى العقيدة المستقرة في الضمير .

فإذا اتفقت هذه المصادر الثلاثة على إنشاء مدرسة من مدارس الحكمة فلن يكون عجيباً أن تنشأ هذه المدرسة على مثال الرواقين ، فإن نشأتها بين السلالات العربية مفهومة قريبة التعليل ، وإنما المستغرب الذي يخفى تعليله للوهلة الأولى أنها انتشرت في البيئة الإغريقية والبيئة الرومانية أو البيئة الأوربية على الإجمال ، فلو لا ما أصاب العالم الأوربي من القلق النفساني بعد فتوح الإسكندر وقبل الدعوة المسيحية لتعذر فهم ذلك الانتشار .

التدوين

ولا تستطاع المبالغة فيما استفاده البشر من اختراع طريقة لإثبات المعاني بالحروف وإثبات الأعداد بالأرقام . فإن تدوين المعارف البشرية كلها راجع إلى هذا الاختراع النفيس .

ومما يقل فيه الخلاف بين المؤرخين والمنقبين أن حروف الكتابة العربية والكتابة الأفرنجية ترجع إلى مصدر واحد ، وأن الأوربيين اعتمدوا على الكنعانيين أو الإرميين في اقتباس حروفهم الأولى ، وهي مشابهة في

لفظها ورسمها لبعض الحروف السامية، ولا سيما الألف والباء والجيم والذال، وكلها ذات معان معروفة في لغات الساميين .

ومعظم الباحثين في هذا الموضوع يرجحون أن الحروف الكنعانية أو الإرمية تدرجت من حروف مصرية مأخوذة عن الصور الهيروغليفية القديمة، وأن اللوحة التي عثر بها سير فلاندرس بتري في شبه جزيرة سيناء (سنة ١٩٠٦) تشمل على النموذج الوسط بين الصور القديمة والحروف الأبجدية كما نشرها الكنعانيون والإرميون . ويقدرّون أن هذه اللوحة ترجع إلى أقدم من ثلاثه آلاف وخمسمائة سنة ، وقد كان الإرميون في ذلك العهد يعيشون في شبه جزيرة سيناء

ولعل الصور الهيروغليفية في مصر سبقت مثيلاتها في بلدان العالم لتوافر الورق البردى ومداد الكتابة الثابت في وادي النيل . ولكن الأوربيين لم يقتبسوها مباشرة من وادي النيل لحرص الكهنة على إخفاء هذه الأسرار... فلما بلغت مع الزمن طور الحروف الشائعة أمكن أن تنتقل إلى جوار مصر في سيناء وتخومها الشرقية ، حيث أقام الإرميون والكنعانيون

ومما لا شك فيه أن فضل النشر والتعميم ثابت لأبناء الجزيرة العربية في هذا الاختراع النفيس، لأنهم نقلوه إلى الأقطار الآسيوية كما نقلوه إلى الأقطار الأوربية ، فأخذ الهنود حروفهم من اليمن كما أخذ الإغريق حروفهم من عرب الشمال بفلسطين

وطريقة الترقيم الحسابية أحدث كثيراً من طريقه الكتابة بالحروف ،

ولكن تقويم الحروف بالقيم الحسابية قديم في الشعوب السامية ، ولما اقتبسوا الأرقام الهندية بعد الإسلام صقلوها وأضافوا إليها علامة الصفر والطريقة العشرية ، ومن ثم عرفت هذه الأرقام عند الأوربيين باسم الأرقام العربية ولا يزال اسم الصفر عندهم Zero « زيرو » محرفاً عن اسمه فيها .

صناعات السلم والحرب

ويرى إسحاق تيلور Issac Taylor أن الإغريق اقتبسوا نظام الأوزان وسك النقود عن البابليين من طريق الإرميين فالليديين في آسيا الصغرى .

وقد كان للارميين بطون في العراق و بطون أخرى في سيناء وفلسطين فكانوا ينشرون ما اقتبسوه من وادى النهرين ووادى النيل على السواء ، وكان الإغريق على اتصال بهم في الموانئ الشرقية من آسيا الصغرى إلى تخوم سيناء ، فنقلوا عنهم وسائل الحضارة والتجارة قبل أن يهتدى إليها أبناء القارة الأوربية بزمن طويل

والإغريق ملاحون قدماء في صناعة الملاحة ، ولكنهم لم يسبقوا الكنعانيين إلى هذه الصناعة لأن هؤلاء قد عكفوا على نقل التجارة البحرية وأوشكوا أن يحتكروها في شرق البحر الأبيض إلى ما بعد أيام الإسكندر ونشأة الإسكندرية ، وأعانهم على تجويد الملاحة كثرة الأخشاب الصالحة لبناء السفن في أرض كنعان ، وكثرة المحاصيل التي يحتاجون إلى بيعها

والمبادلة عليها في الموانئ القريبة أو البعيدة ، ووقوع بلادهم على شواطئ بحر تفضى إليه التجارة الآسيوية من أبعد الاقطار .

وربما تعلم الإغريق صناعة السفن من الكنعانيين أو من البابليين ، وقد تفيدنا هنا قصة نوح وسفينته لأنها أقدم سفينة ورد لها ذكر في التاريخ ، ولا شك أنها لم تبني في بلاد الإغريق بل بنيت في بلاد قريبة من بلاد التوراة ، أو قريبة مما بين العراق وفلسطين ، وقد وجدت آثار السفن الفينيقية القديمة في أفريقية الجنوبية ، وقد ذكر هيرودت رحلات الفينيقيين والمصريين في عهد الفرعون نيخاوس — وكانوا أول من عرف الأمم في ساحل أفريقية الشرقى معرفة يقين . وإنما كان الإغريق يعرفونهم على أيام هوميروس معرفة سماع .

فاذا كان تحقيق السبق عسيراً اليوم فالأمر الذي لا يعسر تحقيقه أن الكنعانيين — أو الفينيقيين كما سماهم الإغريق — توسعوا في الملاحة وإقامة المستعمرات البحرية البعيدة توسعاً لم يبلغه الإغريق في الزمن القديم ، وأنهم إذا كانوا قد اقتبسوا الموازين والنقود والكتابة وأرصاد النجوم وخصائص الأيام الفلكية عن الساميين فليس بالبعيد أنهم تلقوا عنهم دروساً في الملاحة والتجارة وبناء السفن وتوجيهها في البحر على حسب الطوالع والنجوم .

ومما يلاحظ في سياق الكلام على مقتبسات الإغريق من الدول السابقة في شؤون الحياة اليومية وشؤون الحضارة عامة أن أبقرات الملّقب بأبي الطب

قد نشأ في جزيرة كوس ، وأن جالينوس أشهر الأطباء اليونان بعده قد نشأ في آسيا الصغرى ، وأنهما قد ساجا في أرض كنعان وإرم كما ساجا في الديار المصرية ، ولا خلاف في اقتباس أبقراط وجالينوس من طب الفراعنة القديم، ولكن المعارف التي اقتبسها أهل آسيا الصغرى من كنعان وبابل لابد أن تشمل المعارف الطبية التي تلازم الحضارات العريقة ، ولا يمكن أن تستثنى منها بفرض من الفروض .



وتلك هي خلاصة الحضارة القديمة في كلمات معدودات ، فلم تكن هناك صناعة من صناعات السلم لم يتلمذ فيها الأغر يق على أمة من سلالة الجزيرة العربية ، أو لم يكونوا فيها لاحقين على إثر سابقين .

وعلى هذا الاعتبار— أى اعتبار الساميين جميعاً من سلالة الجزيرة العربية— يجب أن يعود اليهم فضل الفنون الحربية التي استفادها الرومان من القائد القرطاجي المشهور باسم هنيبال . فان معركة كانى Cannae التي هزم فيها الرومانيين بنصف عددهم على وجه التقريب لا تزال محوراً للبحث والمناقشة ومرجعاً للدرس والتعلم في أحدث مدارس أوربة العسكرية، وهي على هذا لم تكن إلا فناً من فنون كثيرة فوجيء بها الرومانيون من أساليب ذلك القائد العظيم في نقل الجنود بالبر والبحر والنزول بهم على الشواطئ المكشوفة والصعود بهم إلى قلال الجبال ، واستخدام السفن المبتكرة في

البحر وابتكار الخطط السريعة لتسخير الحيوان في المعارك البرية ، ومنه الفيل والحصان .

ولو شاء المؤرخ أن يعد هينبال عربياً بحتاً — ولا يجعله من السلالة العربية وحسب — لكانت له قرينة من اسمه واسم وطنه وتاريخ ظهوره... فانه ظهر في القرن الثالث قبل الميلاد حين كانت الأمة العربية قد شارفت طورها الحديث الذي بقيت عليه إلى اليوم ، وكانت في اسمه لهجة العربية كما كانت تلفظ في ذلك الزمان ، أو على نحو مقرب منها غاية الاقتراب . لانه سمي « حنى بعل » وهو اسم يرادف نعمة بعل أو نعمة الله . وسميت بلده « قرية حداش » أو القرية الحديثة فصحفت إلى قرناش فقرطاج بتعطيش الجيم كما نطق بها الرومان . وكان اسم أبيه حامى القرية أو « هاملكار » بعد التصحيف والتحريف .



وخلاصة ما تقدم أن الأوربيين تتلمذوا على أبناء الجزيرة العربية في مسائل العقيدة ومسائل الحضارة والمعيشة اليومية ، قبل أن تبلغ أوربة مبلغ العلم لغيره في أمر من الأمور .

ولا يقدر في هذا أن السمرين — سكان ما بين النهرين الأولين — كانوا شعباً من شعوب العنصر الآرى كما جاء في بعض التقديرات التي تستحق النظر والترجيح .

فان المحقق الذي لا يتخلف فيه الظنون أن المعارف الفلكية التي وصلت

إلى الأوربيين وبنوا عليها عقائدهم في الكواكب والأيام مصبوغة بالصبغة
 البابلية سواء في الأسماء أو الصفات ، وأن الكتابة قد وصلت إلى الأوربيين
 والهنود من طريق أبناء الجزيرة العربية في أقصى الشمال أو أقصى الجنوب ،
 وأنه مهما يكن الظن بالابتكار في أطواره الأولى فالطابع السامى ظاهر على
 أول ما اقتبسه الأوربيون من دروس الفلك والكتابة والحكمة الرواقية
 وبعض أسباب التجارة والملاحة والعمار ، وليس في شيء من ذلك ، ولا في
 غيره ، طابع ظاهر للسمريين .

الأصل والنقل

الأصالة قدر مشترك بين جميع الحضارات : فكل حضارة أبدعت ونقلت وكانت لها سمة تميزها بين الحضارات العالمية . ولم توجد قط حضارة تفردت بالإبداع أو تفردت بالنقل أو خلقت من السمة التي تميزها بين سمات الحضارة .

إلا أن البدعة الحديثة التي نشأت حول الآرية والسامية قد جنحت بالأوروبيين منذ ظهرت فيهم إلى اختصاص الحضارة العربية بالنقل دون الإبداع ، وحببت إليهم أن يميزوا عليها حضارات الأمم الآرية - ولو كانت شرقية - بملكية الإبداع والتفكير الحر ولا سيما في المباحث النظرية التي يراد بها العلم للعلم ولا يراد بها العلم للتطبيق أو للانتفاع به في مرافق المعيشة . لأن تمييز الشرقيين الآريين ينتهي إلى تمييز العنصر الأوربي في أصوله الأولى ، وهي الدعوى التي يسوغ بها سيادته على أمم العالمين .

وقال منهم قائلون إن هذه السمة - سمة النقل - لازمت الجنس العربي منذ كان له تاريخ متصل بتاريخ العالم في أقدم العصور ، فالسمريون سبقوا الأمم العربية فيما بين النهرين ، وبلغوا شأواً عظيماً من الحضارة وال عمران تدل عليه الآثار التي بقيت بعدهم ولا تزال فضلة منها كافية لتقديرها أحسن تقدير .

فلا جرم كان البابليون والكلدانيون مسبقين إلى حضارتهم فيما بين
النهرين ولم يكونوا فيها سابقين ولا مبتدعين .

ولما تجدد ظهور العرب بعد الإسلام كانت لهم حضارة ولكنها كانت
كذلك حضارة منقولة ولم تكن بالحضارة المبتدعة على أيديهم ، وثبتت سمة
النقل باحصاء أسماء العلماء والمفكرين الذين نهضوا بأمانة الثقافة في ظل
الدولة العربية ، فإنهم كلهم - إلا القليل منهم - كانوا من الشعوب
الأعجمية التي دانت بالإسلام ولم يكونوا من العرب الأصلاء ، وتلك هي
الحجة التي يستند إليها دعاة العصبية الأوربية في تجريد الأمم التي لا تتوشج
بينها وبين الأوربيين واشجة قرابة ، من مزايا الإبداع والتفكير .

وهذا الكتاب فيما نرى هو موضع الفصل في هذه الدعوى الشائعة ، أو
هو على الأقل موضع الإشارة إلى البيئة الراجحة والبيئة المرجوحة من أقوال
دعاتها ، لأن تمحيص المزايا العربية هو قوام الكلام على آثار العرب في
الحضارة الأوربية .

وأول ما يوجب التشكيك في هذه الدعوى أن نسأل : أين هي الحضارة
التي أبدعت ولم تنقل ؟ وأين هي الحضارة التي يقال عن جميع علمائها إنهم
من عنصر محض خالص ينتمون إليه ولا يمتزج بالعناصر الأخرى ؟

فالإغريق نقلوا قبل أن يبدعوا ، وعلماءهم - كما أشرنا إلى ذلك في
غير هذا الموضع - قد نبغوا في آسيا الصغرى وجزر الأرخيبيل وصقلية
والإسكندرية وفلسطين والشام وتخوم العراق ، ولم ينحصر نبوغهم في

مكان واحد يقال إنه هو موطن العنصر المحض الخالص الذي لا يشوبه عنصر دخيل.

ويصدق هذا على الهند وفارس والصين ، كما يصدق على أية أمة من سلالات الأوربيين المحدثين .

ولا شك أن السمريين الأقدمين كانوا سلالة أخرى غير السلالة العربية لأنهم يخالفونها في معدن اللغة وخصائص المزاج ، ولكن الجزم بمنشئهم الأصيل أمر لم ييسر للباحثين إلى يومنا هذا . فقد تباين القول في منشئهم حتى قال أناس إنهم من المغول وقال آخرون إنهم من المصريين ، وقال غير هؤلاء وهؤلاء إنهم أورييون منحدرين من الشمال

إلا أن القول بأن العرب الذين وفدوا إلى بلادهم لم يبدعوا شيئاً غير ما أبدعه السمريون هو محض تخمين وتظنين ، لأن العالم لم يتلق عن السمريين أثراً من آثار حضارتهم في حينها ، ولما اتصلت العلاقة بين بلادهم وما جاورها كانت السمات العربية ظاهرة في معدن اللغة وعادات الاجتماع ومزاج التفكير ، فلا موضع هنا للجزم بأن العرب نقلوا ولم يبدعوا ، وأن السمريين قبلهم أبدعوا ولم ينقلوا ، مع جهلنا كل الجهل بما أبدعوه وما نقلوه .

أما في العهد الإسلامي فقد اشتركت الأمم الأعجمية حقاً في أمانة الثقافة وكان لفضائلها قسط عظيم في مختلف العلوم والدراسات ، ولكنها لم تنهض هذه النهضة إلا بعد ظهور الإسلام فيها ، ولم تكن لها في إبان مجدها القديم

فضيلة على العنصر العربي في الدراسات النظرية التي يراد بها العلم للعلم ولا يراد بها العلم للتطبيق أو للانتفاع به في مرافق المعيشة.

وكل نظر صحيح في هذه المسألة يوجب الشك في السبب الذي يردها إليه دعاة العصبية العنصرية ، وهو العجز الأصيل في تفكير العربي وقلة استعداده للبحث الفلسفي والدراسة النظرية والاهتمام بالمعرفة والاستطلاع لغير الكسب والانتفاع .

مثال ذلك أن الذين جمعوا الحديث في أول حركة الجمع كانوا من الأعاجم وكان أقرانهم من العرب الأصلاء ، ولم يقل أحد قط إن العربي تعوزه ملكة الرواية وحفظ الأنساب والإسناد ، وهو الذي وعى بالحفاظة من أنسابه وإسناده ورواياته - ما لم يدخل في وعى أمم كثيرة من أمم البداوة أو الحضارة فلا بد من الرجوع إذن إلى سبب غير السبب العنصري المزعوم لتعليل القلة الملحوظة في عدد العلماء من العرب الأصلاء ، في بعض العصور .

وأدعى من هذا إلى البحث عن سبب غير ذلك السبب أن العرب الأصلاء قد اشتغلوا بالفلسفة والحكمة في الأندلس وعلى عهد العلويين وأواخر العباسيين ، وأن تاريخ الثقافة العربية يشتمل على أناس مثل ابن الهيثم والحسن بن أحمد الهمداني (المتوفى سنة ٣٣٤) صاحب كتاب سرائر الحكمة وأنساب حمير وهو محيط بمباحث الفلسفة عن أصل العالم وقواعد المنطق والكلام ، ومثل ابن النضر القاضي الذي قال فيه أبو الصلت في رسالته عن منجمي مصر: «أما المنجمون الآن بمصر فهم أطباؤها كما حذيت النعل بالنعل لا يتعلق

أكثرهم من علم النجوم بأكثر من زائجة يرسمها ومراكز يقدمها وأما التبخر ومعرفة الأسباب والعلل والمبادئ الأولى فليس منهم من يرقى إلى هذه الدرجة ويسمو إلى هذه المنزلة ويخلق في هذا الجو ويستضيء بهذا الضوء ما خلا القاضي أبا الحسن علي بن النضر المعروف بالأديب فإنه كان من الأفاضل الأعيان المعدودين من حسنات الزمان .

وفي كتب التراجم والسير — ولا سيما أخبار الحكماء للقفطي — خلاصات طيبة عن كثير من الفلاسفة والحكماء ممن لم يرزقوا الشهرة في صدر الإسلام . وقد اشتهر مع هذا رجال كالكندي ومحمد بن ابراهيم الفزارى وأبناء موسى بن شاكر الثلاثة محمد وأحمد والحسن في العهد الذي برزت فيه أسماء العلماء من الغرباء عن السلالة العربية .

ولا يذهب بنا البحث عن سبب غير سبب القصور العنصرى إلى بعيد فان الأسباب كثيرة مكشوفة قريبة التناول لمن يريد أن يراها ، ومنها أن الأعاجم سبقوا العرب إلى صناعة الكتابة لأن العرب كانوا في صدر الإسلام أصحاب قيادة ورياسة شغلهم الفتوح وسياسة البلدان المفتوحة عن دراسة العلوم التي يعنى عنهم فيها أعوانهم من الأتباع والمرءوسين .

ومن تلك الأسباب أن الأمم الطارئة على الإسلام كانت أحوج إلى تعلم اللغة والفقه والبحث عن مصادرها ، وإلى الاستمسك في بلادهم النائية بعروة الذين لدى لا تربطهم بالدولة عروة سواء .

ومنها أن الدولة العباسية قامت على الأعاجم فقربتهم وتعهدتهم بالمكافأة والتشجيع ، فأقبلوا على البحث والعلم وهم على ثقة من حسن الجزاء .

ومنها أن عدد الفضلاء الأعاجم هو عددهم بالقياس إلى جميع أفراد الأمم التي ينتمون إليها . أما عدد الفضلاء من صميم العرب فهو عددهم بالقياس إلى الفاتحين الراحلين عن الجزيرة العربية ، وهم قلة صغيرة إلى جانب الذين تخلفوا بعدهم في البادية على نحو من معيشتهم الأولى .

ومنها أن الجدل والمناظرة من لذات الأمم المغلوبة لأنها تلمس فيها الغلب الذي فاتها من جانب السيادة والقيام على العروش .

فالتصور العنصرى سبب لاتلجئنا إليه الحقائق ولا تزكيه عند المنصفين أما الثابت من هذه الحقائق فهو أن الدفعة التي أحييت الحضارة في رقعة الدولة الإسلامية قد جاءت من السلالة العربية ، وأن حضارة الدولة الإسلامية هي التي سمحت ببقاء ما بقي من حضارات الفراعنة والإغريق والفرس والهنود ، ولولا قوة « موجبة » في العبقريّة العربية لما جاءت تلك الدفعة ولا تيسرت تلك الحضارة .

وليس كل ما انتقل على أيدي الحضارة الإسلامية عربياً محضاً في الأصول والفروع ، ولكن حسبها أنه لم ينقطع على أيديها ، فاتصلت بفضلها وشائجها بالتاريخ القديم والحديث ، فحفظت تراث الإنسانية كلها وزادت عليه ونقلته إلى من تلاها ، وكل حضارة صنعت ذلك فقد صنعت خيراً ما يطلب من الحضارات ، ومن طلب إليها الا توارث الناس إلا شيئاً جديداً من ابتداعها فقد طلب إليها أن تلغى كل ما تقدمها ، أو هو قد طلب إليها ما يناقض الحضارة في فضيلتها الكبرى ، وهي فضيلة الساحة والحرص على تراث بنى الإنسان .
وفما يلي بعض ما حملته من أمانة الحضارة إلى العالم الحديث :

الطب والعلوم

أشاد هوميروس في الأوديسى بمهارة الأطباء المصريين ، وقال هيروودوت غير مرة إنهم كانوا يعالجون أنواعا شتى من الأمراض يختص كل منهم بمرض يبرع في علاجه ، وروى أن قورش أرسل إلى مصر في طلب طبيب للعيون ، وإن دارا كان عظيم الإعجاب بهم كثير الثناء عليهم ، وكان الإغريق يعرفون اسم « المحوتب » رب الحكمة في مصر القديمة ويسمونه بلقتهم أموثيس . وقد نقلوا عن الطب المصرى كثيراً من العقاقير كما نقلوا آلات الجراحة بغير تبديل .

وتلقى الإغريق شيئاً من الطب الكلدانى كما كان في عصوره القديمة مزيجاً من السحر والتعويد والعلاج .

ثم دارت دورة الثقافة الإنسانية على أمتها في هذه الصناعة التي يحتاج إليها جميع الناس ، فأعاد الإغريق ما أخذوه وما زادوه إلى المصريين في عهد مدرسة الإسكندرية وإلى الكلدان والسريان في أواخر الدولة الرومانية الشرقية ، وكان في ذلك الحين حصّة من تراث الأديرة وكهاناتها ، يتدارسه من يتدارسون العلوم باليونانية أو اللاتينية ، وكان معظمهم يومئذ من رجال الدين .

واستعان الفرس بأطباء السريان والروم فأنشأوا المدرسة الطبية والمستشفى المشهور بجند يسابور ، وكان عليه معول الشعوب القريبة كلها في إتمام معارفهم الطبية والتوسع في الإطلاع على فنون العلاج عند سائر الأمم ، ومن تلاميذه النابهين بين أطباء العرب الحارث بن كلدة الذى تعلم الطب فى الجاهلية وأدرك الإسلام .

وقد عرف العرب التطيب فى أقدم عصور الجاهلية على طريقة البداوة فى مزج الطب والكهانة وعلاج الأمراض بالوسائل البدائية ، فكان لكل قبيلة عرافها الذى يستشار فى كل ما حزبها من الأمور ، ومنها العلل والشكايات .

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفيانى
 وكان طب هؤلاء العرافين يخلط بين الرقى والتبخير وتعاطى الأدوية التى تقترن بالعزائم والتأمم والتعاويد ، ومع العرافين أطباء مختصون بالعلاج لا يزاولون الكهانة ولا يموهون على المرضى بأسم الجن أو الأصنام ، ويعالجونهم بالفصد والسكى والحجامة والحمية وبعض العقاقير والأعشاب التى تنبت فى بلاد العرب أو تجلب من الهند والصين . ووصايا هؤلاء الأطباء تدل على خبرة حسنة بتصحيح الأجسام، كما قال الحارث ابن كلدة :
 « من سره البقاء ولا بقاء فليباكر الغداء وليخفف الرداء وليقل غشيان النساء »
 وسأله معاوية : ما الطب يا حارث ! فقال : الأزم يا معاوية ! يعنى الجوع . وكان ينهى عن الاستحمام بعد الطعام ويوصى بالتخفف من

الديون والمهموم . وكانت لهم طريقة عملية ناجحة في التماس الدواء لما استعصى عليهم دواؤه وهي أن يخرجوا المريض إلى طريق القوافل ليراه من أصيب بمثل مرضه ويصف له الدواء الذي شفاه .

ويبدو لنا أن اشتغال العرب الطويل برعى الماشية قد باعد بينهم وبين طب الكهانة والخرافة وقارب بينهم وبين طب التجارب العملية ، لأنهم راقبوا الحمل والولادة والنمو وما يتصل به من الأطوار الحيوية وشرحوا الأجسام فعرفوا مواقع الأعضاء منها وعرفوا عمل هذه الأعضاء في بنية الحيوان نحواً من المعرفة السليمة ، فاقتربوا من الإصابة في تحليل المرض والشفاء .

وجاء الإسلام قفضى على الكهانة وفتح الباب للطب الطبيعي على مصراعيه لأنه أبطل المداواة بالسحر والشعوذة ولم يحدث في مكان الكهان طبقة جديدة تتولى العلاج باسم الدين . بل سمح النبي عليه السلام باستشارة الأطباء ولو من غير المسلمين ، فلما مرض سعد بن أبي وقاص في حجة الوداع عاده النبي وقال له : إني لأرجو أن يشفيك الله حتى يضر بك قوم وينتفع آخرون . ثم قال للحارث بن كلدة : «عالج سعداً مما به» والحارث على غير دين الإسلام . وذكر القرآن الكريم لقمان الحكيم : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر الله » ومنها التطيب أو هي الطب قبل سائر ضروب الحكمة ، فجعل الإسلام هذه الصناعة نعمة يشكرها من أسبغها الله عليه ، واتخذها وظيفة معترفاً بها ولو لم تكن من أعمال المتدينين .

لهذا كثر اشتغال المسيحيين بالطب في ظل الدولة الإسلامية ، ونبغ الأطباء بين نصارى المشرق في الوقت الذي كانت فيه الكنيسة الغربية تحرم صناعة الطب لأن المرض عقاب من الله لا ينبغي للإنسان أن يصرفه عن استحققه ، وظل الطب محجوراً عليه بهذه الحجة إلى ما بعد انقضاء العهد المسمى بعهد الايمان ، عند استهلال القرن الثاني عشر للميلاد ، وهو إبان الحضارة الاندلسية

وقد دعى إلى الامتحان في بغداد نحو تسعمائة طبيب على عهد المقتدر بالله وهم غير الأساتذة الثقات الذين تجاوزوا مرتبة الامتحان، وهي عناية بالطب والصحة لم تشهدها قط حاضرة من حواضر التاريخ القديم .
ومن هذه الكثرة في عدد الأطباء ومعلمى الطب يتبين لنا أن الحاجة إلى دراسة الطب والعلوم كانت حاجة عمران كامل ولم تكن حاجة أفراد أو طوائف محدودة

فمن الجائز في بداية الأمر أن الملوك احتاجوا إلى الأطباء البارعين فاستقدموا إليهم من ترامت إليهم سمعتهم بالقدرة والدراية ، ومن الجائز كذلك أن بعض الرهبان أو العلماء في طوائف السريان والروم كانوا ينقطعون لدراسة العلم فيما انقطعوا له من صنوف الدراسات ، ولكن العاصمة لا تتسع لأكثر من ألف طبيب في وقت واحد ما لم تكن الحاجة إلى الطب والعلم حاجة عمران واسع الأطراف ، وقد كان السريان والروم في أماكنهم وكان معهم أقوامهم وذووهم وكتبهم وودائعهم في ظل القيصرية

والأكاسرة فلم يتسع نطاق المعرفة هذا الاتساع ولم يبلغ ارتقاء المعيشة في عهد الحضارة الرومانية أو الفارسية هذا المبلغ ، وإنما الجديد في الأمر هو التفاعل الطيب في بنية المجتمع مع قيام الدولة الصالحة التي نهضت بها العبقريّة الإسلاميّة وتكفلت بها سماحة الدين الجديد .

ولم تكن مزاولة الصناعة وحدها هي الغرض المقصود من هذه النهضة الواسعة وهذا التعليم المستفيض ، لأن أشهر الأطباء كانوا يضيفون إلى علم الطب علماً آخر كالفلسفة أو الهندسة أو الفلك أو الكيمياء ، وكانوا يؤلفون الموسوعات ويطلقون البحث في أمهات هذا العلم حيث كان .

وقد كان بعض الدراسة كافياً لمزاولة الصناعة الطبية في تلك العصور ، ولكنهم طلبوا العلم للعلم فلم يقنعوا بما وجدوه من كتب الإغريق الأقدمين أو كتب الفرس والهنود ، ورجعوا إلى كل مظنة من مظان التوسع في هذه البحوث فتساوى بحثهم عن كتب الطب وبحثهم عن كتب الهندسة والنجوم وسائر المعلومات ، ووضعوا الكتب فيما قرأوه وترجموه فإذا هو موسوعات تشمل « الوصفة » الهندية إلى جانب الوصفة العربية أو الفارسية أو اليونانية ، وإذا هي مباحث تهذيب واستقصاء وليست متاجر أرباح . ومن موسوعات الطب الإسلاميّة ما لم يوضع له نظير في الضخامة والتمحيص على قدر أسباب التمحيص في زمانه ، وقد ترجمت كلها إلى اللاتينية فنقلت هذه الصناعة بين أطباء أوربة من حال إلى حال ، ولم يضارع مؤلفي العربية فيها أحد من علماء الأوربيين إلى مطلع العصور

الحديثة ، مع شغف الأوربيين أخيراً بادعاء ملكة العلم للعلم واتهام الشرقيين بأنهم لا يطلبون العلم إلا للصناعة وأرباحها ، فانعكست الآية هنا وأصبح أطباء أوربة يقرأون كتب العربية ليستفيدوا منها في مزاولة الصناعة وكسب الأموال وتشابهوا في ذلك جميعاً ما لم يكونوا من الرهبان والقسوس الذين انقطعوا عن الدنيا فلا يجهرون بطالب المال من صناعة الطب ولا غيرها من الصناعات .

فترجم كتاب القانون لابن سينا في القرن الثاني عشر وهو موسوعة جمعت خلاصة ما وصل إليه الطب عند العرب والإغريق والهنود والسريريان والأنباط ، وترجم كتاب الحاوي للرازي سنة ١٢٧٩ وهو أكبر من القانون وأوسع منه في المادة والموضوع ، وقد أكمله تلاميذ الرازي بعد موته لأنه عمل لا يضطلع به الأفراد .

وترجمت كتب ابن الهيثم في ذلك العصر فكان عليها معول الأوربيين اللاحقين جميعاً في البصريات .

وظهر من برامج جامعة لوفان المحفوظة أن كتب الرازي وابن سينا كانت هي المرجع المعول عليه عند أساتذة تلك الجامعة إلى أوائل القرن السابع عشر ، وجاء المدد من الأندلس العربية فأمد أوربه بمرجعها الأكبر في الجراحة وتجيير العظام ، وهو كتاب التعريف لمن عجز عن التصريف لأبي القاسم خلف بن العباس ، وقد طبع باللغة اللاتينية في القرن الخامس عشر وكان قبل طبعه دروساً متداولة بين أبناء الصناعة يعتمدون عليها في الأعمال

الجراحية ولا سيما فتح المثانة وإخراج الحصاة ، وقال العالم الطبيعي الكبير هالدر في رواية جستاف لوبون إن كتب أبي القاسم كانت مرجع الجراحين جميعاً بعد القرن الرابع عشر للميلاد ، وقد ترك كتباً صغيراً عن الآلات الجراحية التي تستخدم في العمليات على اختلافها مع توضيحها بالأشكال وطرائق الاستخدام .

وتكاثرت المستشفيات باسم المارستانات في أنحاء الدولة الإسلامية بعد القرن الثالث للهجرة ، وكانت لهم طريقة لطيفة للتحقق من جودة الهواء وصالح الموقع لبناء المستشفيات تغني عن الأساليب العلمية التي اتبعت في العصر الحاضر بعد كشف الجراثيم والإحاطة بوسائل التحليل . فكانوا يعلقون اللحوم في مواضع مختلفة من المدينة في وقت واحد ، فأبها أسرع إليه العفن اجتنبوا مكانه واختاروا المكان الذي تتأخر فيه عوارض الفساد .

وقد تسلم العرب الطب في مرحلة من مراحل الطويلة بين النظريات القديمة والنظريات الحديثة . فكانت نظرية بقراط أن الأخلاط أربعة دم وبلغم وصفراء وسوداء وأن المرض هو اختلال النسبة بين هذه الأخلاط والعلاج هو ردها إلى نسبتها الأولى ، وكانت نظرية جالينوس أن الأمزجة أربعة وهي الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة ، فمن أصيب من قبل الحرارة فعلاجه البرودة ومن أصيب من قبل الرطوبة فعلاجه اليبوسة وعلاج كل عرض من هذه الأعراض يقتصر على هذا القياس ، وكثيرين أطباء مدرسة الإسكندرية انتقاد هذه النظريات ولا سيما نظرية بقراط فأبطلها أراز سترات

Erasistratus ونصح لأتباعه بإهمالها وإيثار الملاحظة الدقيقة عليها ، وجاء بعدهم من اكتفى في التوصيف بسؤال المريض والمقابلة بين حالته وأحوال المرضى الآخرين وتسجيل الظواهر والأعراض في جميع الأحوال .

فلما تناول العرب الطب كانت هذه الصناعة في المرحلة بين تناسي النظريات القديمة ونشأة النظريات الحديثة ، ولم تكن العلوم في جملتها قد وصلت إلى الطور الذي يسمح بابتكار هذه النظريات ، فاعتمدوا الملاحظة والتجربة ولم يعولوا كل التعويل على التزام النظريات أو ابتكار الجديد منها ، وتصرفوا في العلاج فلم يتيقيدوا برأى جالينوس في علاج البرودة بالحرارة أو الحرارة بالبرودة ، بل كان منهم من يعالج البرد بالبرد في بعض الحالات أو يجمع بين الحمية والتبريد والترطيب كما كان يفعل صاعد بن بشر رئيس المستشفى العسدي ببغداد ، وقد عرفوا العلاج بالعوض كما يؤخذ من كلامهم عن خصائص أعضاء الحيوان . فإن الدميري صاحب كتاب الحيوان يذكر من منافع رثة الثعلب مثلا أنها تداوى أمراض الصدر لأن هذا الحيوان لا يلهث إذا عدا ، ويذكر غير ذلك من خصائص أعضاء الحيوان .

وسبقوا الإفرنج إلى وصف الجذام وشرح مرضى الجدري والحصبة ، وعلاج أمراض العين ، وحاموا حول مذهب فرويد في الطب النفساني وعلاقته بالمسائل الجنسية على نحو تجربي خليق بأن يحتذى في تقرير المعارف والمشاهدات . فمن ذلك أن حظية للرشيدي تمطت في بعض الأيام ورفعت يدها فبقيت منبسطة لا يمكنها ردها وعلجت بالتمرير والدهن فلم تنتفع

بهما . فلما سئل جبرائيل بن بختيشوع قال للرشيد : « إن لم يسخط على أمير المؤمنين فلها عندى حيلة . قال له الرشيد : ما هي ؟ قال : تخرج الجارية إلى ههنا بحضرة الجميع حتى أعمل ما أريده وتمهل على ولا تعجل بالسخط . فأمر الرشيد بإحضار الجارية فخرجت فأسرع إليها جبرائيل ونكس رأسه وأمسك ذيلها كأنه يريد أن يكشفها فانزعجت الجارية وبسطت يدها إلى أسفل وأمسكت ذيلها » ... فقال جبرائيل قد برأت يا أمير المؤمنين ، ولما سئل فى تعليق ذلك قال : « هذه الجارية انصب إلى أعضائها وقت الجماعة خلط رقيق بالحركة وانتشار الحرارة ولأجل أن سكون حركة الجماع يكون بغتة جمدت الفضلة فى بطون الأعصاب وما كان يحلها إلا حركة مثلها ، فاحتلت حتى انبسطت حرارتها وحلت الفضلة فبرأت » .

ويروى عن ابن سينا أنه دعى لعيادة فتى مريض لم يهتد الأطباء إلى علته ، فأمر باستدعاء رجل من عرفاء المدينة وتناول يد الفتى يجس نبضها ويرقب وجهه ، وطلب من العريف أن يسرد أسماء الأحياء فى المدينة فسردها حتى جاء ذكر حى منها فازداد نبض الفتى ، ثم سأله أن يذكر بيوت الحى فازداد النبض عند واحد منها ؛ فسأله عن فى البيت من الفتيات ، وقال لأهل الفتى : زوجته تلك الفتاة فهذا هو الدواء .

وعالج أطباء العرب الجنون علاج الأمراض الطبيعية وقد كان يسمى عند الأفرنج بالمرض الإلهى أو المرض الشيطانى لأنهم كانوا يحسبونه من إصابات الأرواح أو الشياطين .

واقترنت بحوث العرب في الطب ببحوثهم في الكيمياء . فاستفاد الأوروبيون منهم كثيراً في هذا العلم المستحدث ، وربما كانت فائدتهم من دروس العرب الكيمية أعظم مما استفادوه من دروسهم الطبية .

فالقويات معروفة في مصطلحات الكيمياء الحديثة باسمها العربي Alkali وماء الفضة وهو من أهم الحوامض المستخدمة في التجارب الكيمية لم يظهر وصفه في كتاب قبل كتب جابر بن حيان . وهو صاحب الفضل فيما عرفه الأوروبيون عن ملح النوشادر وماء الذهب والبوتاس وزيت الزاج وبعض السموم . وقد ترجم له كتابه السبعين وكتاب تركيب الكيمياء إلى اللغة اللاتينية في أوائل القرن الثاني عشر وظلت كتبه عمدة في هذا العلم بين الأوروبيين إلى أواخر القرن السابع عشر فترجم كتابه الاستتمام إلى اللغة الفرنسية سنة ١٦٧٢

ونقلت كتب الرازي كما نقلت كتب جابر بن حيان ، ومنها تلقى الأوروبيون تقسيم المواد الكيمية إلى نباتية وحيوانية ومعدينية ، وتقسيم المواد المعدنية أدق تقسيم عرف في العصور الوسطى ، ولعل التاريخ الأوربي لم يتأثر بشيء من كشوف العرب في المعدنيات كما تأثر بكشف البارود واستخدامه في قذائف الحصار وأسلحة القتال .

وفي الطبيعيات أخرج العرب الثقل النوعي لكثير من العناصر والجواهر النفيسة ، ونقلوا رأى الإغريق في الجاذبية وتعليل الثقل وفخواه أن الأجسام

الثقيلة مجذوبة إلى معدنها من مركز الأرض وأن الأجسام الروحانية مجذوبة إلى أصلها في السماء . ولكن البيروني شك في ذلك ووجه إلى ابن سينا سؤاله الذي يدل على ميله إلى القول بأن الأجسام كلها مجذوبة إلى مركز الكرة الأرضية ، وذلك حيث يقول : « ما الصحيح من قول القائلين أحدهما يقول إن الماء والأرض يتحركان إلى المركز والهواء والنار يتحركان من المركز والآخر يقول إن جميعها يتحرك نحو المركز ولكن الأثقل منها يسبق الأخف في الحركة إليه »

وقد مهدت هذه الآراء سبيل نيوتن إلى كشف قانون الجاذبية وتعليل الثقل على الأساس العلمي الحديث

وللبيروني أيضاً فضل السبق إلى درس السوائل في عيون الأرض ومرتفعات الجبال وما تحكم به حركاتها في حالى التوازن والارتفاع ، ومن رواد هذه المباحث في اللغة العربية أبناء موسى بن شاكر أصحاب كتاب الحيل الذى يعد أصلاً من أصول « الميكانيكا » قبل تطورها الأخير في عصر الآلات

وعلى سذاجة البحوث التى انتهى إليها علم التاريخ الطبيعى قبل القرن الثامن عشر كانت مؤلفات العرب خير المراجع فى هذه العلوم للأوربيين وغير الأوربيين ، فإنهم جمعوا المتفرق من المعلومات القديمة عن الحيوان والنبات وزادوا عليه وتوسعوا فيه . فنقلوا عن الهند والكلدان واليونان والآباط ، واعتمدوا على المشاهدة فى بلادهم وغير بلادهم كما فعل ضياء الدين

المالقي المعروف بابن البيطار ، فقد ولد بمالقة وساح في أنحاء العالم الإسلامي ووصل إلى أقصى بلاد الروم للبحث عن الأعشاب وأصناف النبات ، وعينه الكامل الأيوبي رئيساً للعشابين بالديار المصرية وهم يقابلون في عصرنا هذا علماء النبات وعلماء الصيدلة في وقت واحد ، وألف كتاب « الأدوية المفردة » فاستوعب فيه صفوة المعلومات التي أدركها علم زمانه في هذه البحوث

جاء في كتاب « الحضارة الأوربية سياسية واجتماعية وثقافية » لمؤلفيه أساتذة الفلسفة جيمس وستفال توسون وفرانكلن شارلز پام وفان نوستراند : « في خلال قرنين نقل إلى العربية كل ما خلفه الإغريق من التراث العلمي على التقريب . وأصبحت بغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة مراكز لأمعة لدراسة العلم وتلقيه . . . وأخذت المعرفة بهذه الثقافة الإغريقية العربية تتسرب إلى أوربة الغربية في أواخر القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر . . . ولم يكن تسربها من أثر الغزوات الصليبية كما يسبق إلى الخاطر ، ولكنه جاء من طريق صقلية إلى إيطاليا ومن أسبانيا الحمديدية إلى أسبانيا المسيحية ثم إلى فرنسا . وتسابق الرجال من ذوى العقول اليقظى إلى بلارمة وطليلة لتعلم اللغة العربية ودراسة العلوم العربية ، والعجيب أن معظم هؤلاء الرجال كانوا من الإنجليز^(١) مثل أديلارد أوف بات ودانيال أوف مورلى

(١) حافظنا على التسمية الانجليزية لأنها أشبه بالأسماء التي يعرف بها أصحابها بهذه الصيغة .

وروجر أوف هيرفورد واسكندر نكوام ، وكانت رسالة أديلارد أوف بات في المسائل الطبيعية أول مؤلف علمي أنتجته أوروبا الغربية في القرون الوسطى ، وقضى بعض الطلاب سنين عدة في أسبانيا ثم قضوا أعمارهم كلها في هذا العمل المقصور على ترجمة الكتب العلمية العربية إلى اللغة اللاتينية . . . وترجم جيرارد أوف كريمونا المتوفى سنة ١١٨٧ في الثالثة والسبعين من عمره واحداً وسبعين كتاباً مختلفاً من هذه الكتب ، وقاربه في وفرة الإنتاج أفلاطون أوف تيفولى ، وعلى هذا النحو كانت أوروبا قد استولت في مستهل القرن الثالث عشر على محصول العلم الإغريقي والعربي بجزائره . وأصبح تدريس العلم في الجامعات الحديثة من الأمور المقررة المتفق عليها . وكان أعظم علماء ذلك العصر الإنجليزي الفرنسي سكاني روجر باكون (١٢١٤ — ١٢٩٢) وهو لا يقصر في عظمته عن شأن البرتس الكبير ، وكلاهما قد تولى التدريس في جامعة باريس . ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى ظهرت مجموعة هذه المعارف في سفر ضخيم من تصنيف فنسنت أوف بوفيس سماه مرآة الطبيعة وحوى فيه كل ما وسعته المعرفة البشرية في ذلك الجيل من طب وظواهر كونية وفلك وجغرافية وظواهر جوية ، وكلام عن طبقات الأرض والمعادن والنبات والأحياء والتشريح . . الخ » .

على أن الجانب المهم من أثر هذه الموسوعات الثقافية في أوروبا

لا يتوقف على تعدد المعلومات كم « معلومة » بلغت وكم معلومة أخذها العرب أو أخذها منهم الأوروبيون ، وإنما المهم أن الأوروبيين تناولوا مشعل العلم من أيدي العرب فاستضاءوا به بعد ظلمة وبلغوا به بعد ذلك ما بلغوه من هذا الضياء العميم الذي انكشفت به أحدث العلوم ، ولو لم يحمل العرب ذلك المشعل شرقاً وغرباً لكان من أعسر الأمور أن يقدح الأوروبيون نوره من جديد . وإذا أفلحوا في قدحه فقصاراه في ثلاثة قرون أن يقف دون الشأو الذي انتهى إليه جهد الإنسان في عشرات القرون .

الجغرافيا والفلك والرياضة

يعتبر بطليموس صاحب « المجسطى » معلم الجغرافية الأول في العصور القديمة ، لأن اسمه كان أشهر الأسماء التي أذاعها العرب في أورنة بعد مولده بعدة قرون .

ومن الخطأ أن يظن أن علم الجغرافية علم يوناني في أصوله ومبتكراته لاشتهاره باسم مؤلف من كلمتين يونانيتين ، لأن بطليموس نفسه قد اقتبس كثيراً من المصريين كما اقتبس كثيراً من الكنعانيين ، وقد سبقه من اليونان جغرافيون وسياح اعتمدوا على أهل مصر وبابل فيما أثبتوه من الأصول الجغرافية التقليدية ، ومنها الكلام على النيل وأثيوبية وتقسيم الدنيا إلى سبعة أقاليم ، ويبدو على هذا التسبيع طابع البابليين الذين تحدثوا قديماً عن الكواكب السبعة والأيام السبعة وجعلوا التسبيع سمة من سمات الخليقة الإلهية .

فبطليموس نشأ في الإسكندرية واقتبس فيها ما توارثه المصريون من الأرصاد والتقاويم وأخبار الرحلات وقصص السياح على عهد الفراعنة عما طرّقه من البرور والبحور ، وقد بلغ من شيوخ هذه الرحلات بين الإغريق الأقدمين أنها تطرقت إلى الإلياذة والأوديسى من شعر هومر ، كما تطرقت إلى شعر غيره من فحول الشعراء .

ولصلة لا شك فيها بين علم المصريين الأقدمين وعلم الإسكندرانيين راجت المدرسة الجغرافية في الإسكندرية رواجاً لم تبلغه في أرض الرومان ولا اليونان ، فاشتهر فيها بوليبيوس وبسدونيوس وثيوفان ومثلين ، كما وفد إليها استرابون قبل بطليموس بنحو مائة سنة ، وهذا عدا الفلكيين الذين كان لهم من البحث الجغرافي نصيب .

ويعزو بطليموس فضلاً كبيراً إلى كتاب مارنيوس الصوري الذي دون في كتابه خبرة الكنعانيين وخبرة المصريين ، واعتمد عليه بطليموس كثيراً في تقسيم خطوط العرض وخطوط الطول .

والواقع الذي تتفق عليه آراء المؤرخين أن أوربة لم تطلع على جغرافية بطليموس قبل انتقالها إليها من طريق الثقافة العربية ، وأنها وصلت إلى الأوربيين مزيدة منقحة بما أضافه إليها الجغرافيون المسلمون ، ولا سيما البيروني في رحلاته إلى آسيا الشرقية .

واخترع ابن يونس المصري في القرن التاسع للميلاد الرقاص ثم توالى بعده من ضبط حركاته وانتظام ذبذباته .

وليس أرجح من الأقوال التي ترجع بتاريخ الإبرة المغناطيسية إلى الملاحين العرب والمسلمين ، لأن الأقوال التي ترجع بها إلى مخترعات الصين يشوبها كثير من الشك ، ومثلها الأقوال التي ترددها بين الرومان واليونان ، ولم يكن باب الاقتباس مغالطاً بين الصين والعرب في فنون الملاحة . إذ كانت السفن تغدو وتروح زمناً طويلاً قبل الإسلام بين الحيرة

العربية وموانئ الصين ، وقد أثبت العلامة جوستاف لوبون نسبة الإبرة إلى العرب في كتابه عن الحضارة العربية ، وهو إثبات له قيمته في بابه ، فإن أعوزته أدلة الجزم القاطع لم تعوزه أدلة الترجيح .

وقد اشتهر في المشرق الإسلامي جغرافيون مبرزون أضافوا إلى العلم أحسن التحقيقات من طريق الأرصاد الفلكية ومشاهد الرحلات وتمحيص الروايات ، ولكن الاندلس هي التي جمعت صفوة هذه المعلومات وأشاعتها في الأقطار الأوربية التي تجاورها ، وكان للشريف الإدريسي خاصة أعظم الفضل في جمع هذا العلم وتجديده وإحياء العناية به بين ذوى الشأن في زمانه . فلما أراد روجر الثاني ملك صقلية النورمانى في القرن الثانى عشر أن يستوفى معلومات عصره الجغرافية لم يجد من يعتمد عليه في ذلك غير الشريف الإدريسي الذى ولد في سبته ودرس في قرطبة وتطيرت شهرته في بلاد الحضارة الإسلامية والمسيحية . فوضع كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، وصنع له الملك كرة فضية - تمثل كرة الأرض - زنتها أربعمائة رطل رومى ليتخذها مثالا لما يثبته من معالم الكرة الأرضية ولا يعرف أن أحداً سبق الإدريسي إلى بيان الحقيقة عن منابع النيل العليا كما حفظت في الخرائط التي بقيت في بعض المتاحف الأوربية ، ومنها خريطة محفوظة بمتحف سان مرتين الفرنسى ترسم النيل آتياً من بحيرات إلى جنوب خط الاستواء ، بعد أن تخبط الجغرافيون في وصف منابعه وتعليل فيضانه منذ أيام هيردوت الملقب بأبى التاريخ .

ومن الخرائط المرسومة والآراء النظرية التي نقلت عن العرب تلقى كولمبس صورته عن الكرة الأرضية ، وتخيّل أن الأرض كثرة الكثرة المستطيلة ترتفع قمتها في الهند وترتفع لها قمة أخرى مقابلة لها في مكان آخر يشبه إقليم الهند بمناخه وثمراته ومحصول أرضه ومائه . وكانت الخريطة التي أوحت إليه هذه الفكرة مباشرة خريطة الكردينال بطرس الايلي التي سماها صورة الدنيا *Imago mundi* واعتمد فيها على المصادر العربية ونشرها في أوائل القرن الخامس عشر قبل رحلة كولمبس بنحو ثمانين سنة وهو فضل يحسب للعرب في كشف العالم الجديد .

ولقد كانت آراء البيروني ومروياته في علمي الجغرافية والفلك شائعة بين الأوربيين المهذيين ، ومما نقله البيروني عن أهل الهند « أن على تراسع خط الاستواء أربعة مواضع هي جحوت الشرق والروم الغربي وكنك الذي هو القبة والمقاطر لها فلزم من كلامهم أن العمارة في النصف الشمالي بأسره » ثم قال : « وأما اليونان فقد انقطع العمران من جانبهم ببحر أوقيانوس فلما لم يأتهم خبر إلا من جزائر فيه غير بعيدة عن الساحل ولم يتجاوز الخبرون عن الشرق ما يقارب نصف الدور جعلوا العمارة في أحد الربعين الشماليين لا أن ذلك موجب أمر طبيعي فزاج الهواء الواحد لا يتباين ولكن أمثاله من المعارف موكول إلى الخبر من جانب الثقة فكان الربع دون النصف هو ظاهر الأمر والأولى أن يؤخذ به إلى أن يرد دليل لغيره . . . » .

ومعنى هذا الكلام الواضح أن موجب العقل يقضى بوجود جانب مغمور في الجانب الغربي من الكرة الأرضية، ولكن لا يقطع بوجوده إلا بعد المشاهدة وتواتر الخبر من الثقات . وهذه هي الحقيقة التي اعتمد عليها كولبس فاقترح بحر الظلمات على رجاء تحقيق الفكرة المنطقية برؤية العيان . ولو بقي الرأي الغالب على أهل أوربة عن تسطيح الأرض كما كان قبل شيوع كتب الجغرافيين من العرب — مع إنكار الكنيسة للقول باستدارتها ودورانها — لكان من المتعذر جداً أن يسنح في ذهن كولبس خاطر السفر إلى الغرب للوصول إلى الأقطار الآسيوية، ولكن العرب أشاعوا هذه الحقيقة في أهم الكتب الجغرافية التي ألفوها، فكتب ابن خردادبة المتوفى سنة ٨٨٥ للميلاد « أن الأرض مدورة كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلك كالحلحة في جوف البيضة » وقال ابن رسته المتوفى سنة ٩٠٣ « إن الله جل وعز وضع الفلك مستديراً كاستدارة الكرة أجوف دواراً والأرض مستديرة أيضاً كالكرة مصممة في جوف الفلك » وأتى بالبراهين على ذلك فقال : « والدليل على ذلك أن الشمس والقمر وسائر الكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع من في نواحي الأرض في وقت واحد ، بل يرى طلوعها على المواضع المشرقية قبل غيوبتها عن الغربية ويتبين ذلك من الأحداث التي تعرض في العلو فانه يرى وقت الحدث الواحد مختلفاً في نواحي الأرض مثل كسوف القمر فانه إذا رصد في بلدين متباعدين بين المشرق والمغرب فوجد وقت كسوفه في البلد الشرقي منهما على ثلاث

ساعات من الليل مثلا — أقول وجد ذلك الوقت في البلد الغربي على أقل من ثلاث ساعات بقدر المسافة بين البلدين . . . الخ » وقال المسعودى المتوفى سنة ٩٥٦ : « جعل الله عز وجل الفلك الأعلى وهو فلك الاستواء وما يشتمل عليه من طبائع التدوير ، فأولها كرة الأرض يحيط بها فلك القمر ويحيط بفلك القمر فلك عطارد الخ » . وقال المسعودى فى مروج الذهب أن الشمس « إذا غابت فى هذه الجزائر — أى جزائر الأقيانوس — كان طلوعها فى أقصى الصين وذلك نصف دائرة الأرض » .

وقد تولى العلماء غير الجغرافيين تقرير هذه الحقيقة بالأدلة الفلسفية كما فعل ابن سينا فى جوابه على سؤال أبى حسين أحمد السهلى عن علة قيام الأرض فى الفضاء وثبات الأجسام عليها حيث قال : « ينبغى حينئذ ضرورة أن تكون جميع الأجسام الثقالة حيواناً كانت أو غير حيوان تميل بطبعها وتنجذب من جميع الجوانب كلها الى وسط العالم » وألم فى ختام الرسالة بأقوال الأقدمين فقال : « ذهبت طوائف من القدماء الى آراء أخرى غير ما سبق . فمن أصحاب فيثاغورث من قال إن الأرض متحركة دائمة على الاستدارة ومنهم من قال إنها هابطة الى أسفل ومن غيرهم من ذهب إلى سكونها » .

فشيوع العلم باستدارة الأرض بفضل تداوله فى الكتب العربية هو الخطوة الأولى التى تسبق كل خطوة فى طريق كولبس ومن صدق بدعوته من أبناء زمانه ، ولولا هذه الخطوة لكان أهل أوربة الشمالية أولى بكشف

الدنيا الجديدة لأنهم أقرب إليها ، ولهم دراية بالملاحة كدراية أبناء الشواطئ الجنوبية .

على أننا قرأنا رأياً لبعض المشتغلين باللغة والتاريخ عندنا يؤكد فيه سبق العرب إلى كشف الدنيا الجديدة بأدلة لغوية تاريخية يعتمد عليها ، وأشهر من قال بذلك الأب أنستاس الكرملى صاحب البحوث الطويلة فى مشتقات الألفاظ وتواريخها . فانه يشير إلى تيار الخليج الحار فى المحيط الأطلسى فيقول :

« سبق العرب سائر الأمم إلى معرفة هذا التيار وخواصه ، وإلى حركته من المكسيك إلى أرلنדה ومن هذه إلى تلك . فكانوا يركبونه من موطن إلى موطن ، بحيث كانوا يدهشون سكان جزر الماشش أى جزر القصدير وأهالى جزيرة أرلنדה . فكانوا إذا ظننوا إلى أنحاء المكسيك مكث بعضهم فيها وعاد القليلون منهم إلى بلادهم راكبين متن ذلك التيار المبارك مسبحين ربهم مباركين مسلمهم . ونعرف أنهم كانوا يقيمون فى الديار التى عرفت بعد ذلك بالمكسيك من أسماء الحيوانات التى سموها بها وهى أسام تعرف بها إلى اليوم لكن لايفقه أهلها معانيها ولا علماء الغرب الذين اتخذوها . . . » .

إلى أن يقول : « وأما بعض هذه الألفاظ فمنها التمساح المسمى عندهم Alligator فانهم لم يعرفوا من أى لغة هى . إنما يقولون أنها بلسان البلاد التى يعيش فيها ولم يزيدوا على هذا القدر . أما أنها من لغتنا المصرية فما

لاشك فيه لوجود العمامة والكوفية في رأسها أى الألف واللام وهى العمرة التى يمتاز بها القحطانى دون غيره » .

وقد كنا نود أن يستند القول بوصول العرب إلى العالم الجديد على بينة أقوى من هذه البينة . لأن الواقع أن أصل تسمية التمساح بهذا الإسم الأسبانى معروف ، إذ هو مأخوذ من el lagarto الأسبانية المصحفة من lacerata اللاتينية بمعنى فصيلة الضب والعظاية ، و إلى اللاتينية ترجع كلمة lizard الإنجليزية التى يسمى بها ذلك الحيوان وكتلتها قريب من قريب . إلا أننا مع هذا لا نوافق الأب أنتستاس الكرملى على أن كولمبس كان مديناً بالفضل فى معرفة العالم الجديد لمراجع من القرن الخامس للمسيح ، وذلك ما يؤخذ من مقال الأب حيث قال : « وأول من انتبه لهذا الأمر راهب اسمه برندان السائح البحار المولود . . . سنة ٤٨٣ م وهو من أصل شريف يرتقى إلى ملك أرنلدة . . . فى عام ٥٤٥ م تهباً لتحقيق ما يختلج فى صدره من الأمانى مع أربعة عشر راهباً من مقتحمى الأهوال فابتنوا مركباً كبيراً ليستكشفوا ما هنالك . . . وفى سنة ٥٥٢ نزل برندان ورفاقه على ساحل أميركة . . . ولا جرم أن كلنبس كان واقفاً أتم الوقوف على خبر رحلة برندان فتمكن من أن يقنع الملك فردينند والملكة إيزابله بأن يوافقا على هذه الرحلة للبحث عن العالم الجديد . . . » .

فقصة برندان هذه من الأفاصيص التى يرتاب فيها التقات ولا يجدون لها أصلاً مكتوباً قبل القرن الحادى عشر للمسيح ، وهى التى يصح أن يقال

أنها مقتبسة من المصادر العربية لأنها تحكى لنا حكاية الحوت الكبير الذى نزل عليه المسافرون وظنوه جزيرة راسية فتحرك بهم وأوشك أن يفرقهم ، وليس فى القصة وصف للقارة الجديدة بل وصفها كله خيال عن نعيم الأبرار الموعود فى أرض الصالحين والقدسين .

وقد تواترت أقاصيص الجغرافيين العرب عن المغربين الذين طوحوا بأنفسهم فى بحر الظلمات فهلك منهم من هلك وعاد منهم من عاد بأخبار تشبه الأساطير ولا تبدو عليها مظنة الثقة والاعتماد . ومن ذلك إشارة المسعودى فى مروج الذهب إلى أخبار « من غرر وخاطر بنفسه فى ركوبه ، ومن نجا منهم ومن تلف وما شاهدوا منه وما رأوا » .

ومنه وصف الإدريسى فى نزهة المشتاق حيث يقول : « إنهم وصلوا — من لشبونة بعد اثنى عشر يوماً — إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير القروش قليل الضوء فأيقنوا بالتلف ، ثم فردوا قلاعهم فى اليد الأخرى وجروا فى البحر فى ناحية الجنوب اثنى عشر يوماً فخرجوا إلى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل وهى سارحة لا راعى لها ولا ناظر إليها ، فقصدوا الجزيرة فنزلوا بها فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين برى ، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها »

إلى أن يقول : « فاعتقلوا فيها فى بيت ثلاثة أيام ، ثم دخل عليهم فى اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربى فسألهم عن حالهم وفيما جاءوا وأين

بلدهم ، فأخبروه بكل خبرهم ، فوعدهم خيراً وأعلمهم أنه ترجمان الملك . . . فلما علم الملك ذلك ضحك وقال للترجمان : خبر القوم أن أبى أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر ، وإنهم جروا فى عرضه شهراً إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا فى غير حاجة ولا فائدة تجدى .»

وهذه وما جرى مجراها أقاصيص ملفقة تحيط بها الشكوك ولا سيما قول الرواة أن المغررين وجدوا فى الجزيرة « رجالاً شقراً زعراً شعوراً رؤسهم سبطة وهم طوال القدود ولنسائهم جمال عجيب .»

ولو وصل أولئك المغررون إلى القارة الجديدة لرأوا هناك ما رآه كولبس وعادوا بخبر أصح من هذه الأوصاف ، وليس فيها جميعاً ما يزيدنا على الظن بأن رواداً من العرب حاولوا استطلاع بحر الظلمات فلم يصلوا منه إلى نهاية ، وهو ظن نستطيع أن نذهب إليه ، بل نجزم به ، بغير حاجة إلى تلك الأقايصيص .

وأقوى من هذا التقدير دلالة على سبق العرب إلى ارتياد العالم الجديد أن كولبس عاد من أمريكا بذهب مخلوط بالنحاس على النحو الذى يخلط به أهل غانة الأفريقية وبالنسبة التى يلاحظونها فى هذا الخليط . وإن لغات الهنود المحر تشتمل على كلمات أوروبية وأقدم منها الكلمات العربية التى تتخللها مع بعض التصحيف والتحريف . ولكن قرينة الذهب أقوى وأقرب إلى الاحتمال . لأن تحقيق الزمن الذى تسربت فيه الكلمات المزعومة أمر عسير المراجع ، إذ كانت الرحلات قد توالى بعد كشف أمريكا بين الشواطئ

الأفريقية والشواطىء الأمريكية في أيام رواج النخاسة واختلاط النخاسيين والعبيد بمن يتكلمون العربية في أفريقية الغربية ، وليس من السهل إثبات تواريخ الألفاظ في لغات كلغات الهنود الحمراء لاتعتمد على الكتابة والتسجيل وأجدد بنا أن نقول كما قال البيروني إن الأمر موكول إلى الخبر من جانب الثقة . فإن فضل العرب القائم على الحقائق في المعارف الجغرافية يغنيهم عن كل فضل قائم على الظنون .

وليس للجغرافية — بعد — من عماد تقوم عليه غير السياحة والاستقراء والأرصاء الفلكية ، وفي كل أولئك فضل ثابت للعرب والمسلمين غير منسى ولا منكور .

فقد كانت السياحة فيما بين القرن العاشر والقرن السادس عشر فناً إسلامياً من فنون أهل المغرب على الخصوص وهم قدوة الأوربيين في هذه الشؤون . ومن سياح المساميين المشهورين أبو عبيد الله البكري الذي ولد في مرسية وألف كتابي معجم ما استعجم والمسالك والممالك وتوفي في أواخر القرن الحادى عشر للميلاد ، ومنهم الشريف الإدريسي المتقدم ذكره ، ومنهم محمد بن عبد الرحيم المازني الذي ولد في غرناطة وألف نخبة الأذهان في عجائب البلدان وتوفي في القرن الثاني عشر ، ومنهم ابن جبير الذي ولد في بلنسية قبل منتصف القرن الثاني عشر وكتب رحلته المتداولة بين قراء العربية ، ومنهم ابن بطوطة صاحب تحفة النظار في غرائب الأمصار أكبر الرحالين في القرن الرابع عشر على الإطلاق .

وهؤلاء غير الرحالين الشرقيين من أمثال المسعودى وابن حوقل وياقوت الحموى والبيرونى وعشرات آخرين لم يشتهروا هذه الشهرة ولم يتركوا بعدهم من المطولات مثل ما ترك هؤلاء .

ويدل على أثر المسلمين فى الملاحظة تلك الكلمات التى لا تزال محفوظة فى لغات الأوربيين بما يشبه حروفها العربية ، مثل Tare من طرح السفينة ، و felouque من الفلك ، و calfata من القلطة ، و Amiral من أمير البحر ، و arsenal من دار الصناعة ، و risk بمعنى المغامرة فى طلب المعاش من كلمة رزق . و avala من كلمة حوالة و avaare من كلمة عوار . و wissil الألمانية من كلمة وصل و calibre من كلمة قالب . وغير ذلك كثير ولا سيما فى كلام أهل الأندلس والبرتغال .

وقد كشفت على شواطئ البحر البلطى وفى البلاد الأوربية الشمالية أحافير شتى ترجع إلى القرون الوسطى منها نقود إسلامية . وهى تدل على اتصال التجارة الشرقية بأطراف أوربة فى الشمال وعلى دخول تلك الأقطار فى نطاق الجغرافية الإسلامية بالمعاملة أو العيان .

وإذا كان وصول العرب إلى القارة الأمريكية قبل كولبس غير مقطوع به على سبيل التحقيق فمن المحقق أنهم وصلوا فى المحيط الأطلسى إلى أمد بعيد وانتهوا إلى جزائر الأزور وكشفوا سواحلها إلى أقصى الجنوب .

أما المعارف الجغرافية من طريق الارصاد الفلكية فن مآثر العرب فيها

أنهم قاسوا محيط الكرة الأرضية في عهد المأمون ثم قاسوه على طريقة البيروني بتقدير ارتفاع الجبال بالدقائق والدرجات . وانهم صححوا خطوط الطول والعرض وحققوا الاعتدال الشمسي وضبطوا التقاويم وأحكوا الازياج . قال جوستاف لوبون في كتابه عن حضارة العرب : إن التقويم السنوي الذي أصلح في عهد السلطان ملك شاه أصح من التقويم الفريغوري الذي أتمه الأوربيون بعد ستمائة سنة ، لأن التقويم الفريغوري يقع فيه خطأ ثلاثة أيام في كل عشرة آلاف سنة ولا يقع بحساب التقويم العربي غير خطأ يومين ، وانهم عرفوا مقياس خط النهار قبل الأوربيين بألف سنة وأنهم كشفوا الاختلاف الثالث في سير القمر الذي أغفله بطليموس ، وانهم هم الذين عينوا الأماكن على الخرائط واستدركوا كثيراً من الأخطاء التي وقع فيها الأغريق في درجات العرض والطول ومنها أخطاء بطليموس الكبير ، وكانت أخطاؤهم لا تتجاوز الدقائق حيث تتجاوزها أخطاء الأغريق إلى الدرجات

ولا حاجة إلى استقصاء طويل في علم الفلك عامة لا قرار فضل العرب فيه على الأمم الأوربية . فان الأسماء العربية باقية بلفظها في المعجمات الفلكية الأوربية سواء في أسماء الكواكب والنجوم أو أسماء المدارات والمصطلحات ، ومن مئات هذه المفردات نكتفي بالقليل للدلالة على الكثير كالطرف Altaref وكرسى الجوزاء Cursa والكف Caph والأرنب Arnab والعقوب arkab والسمت Azimuth وأدحى النعام Azha والبطين

Botein وزبانتى العقرب Zuben Hakrabi والوزن Wezn والنسر
 الواقع Wega والساهور Saros والسيف Saif وصدر الدجاجة Sadr
 وسعد السعود Sadalsud ورجل الجبار Rigel والزورق Zaurek وقرن
 الثور Tauri والراعى Errai والذنب Dench . . . وأمثال هذه الأسماء
 المحفوظة بألفاظها كثير غير ما ترجموه بالمعاني دون الألفاظ

والعلاقة بين الفلك والعلوم الرياضية توجز لنا البيان عن حظ الثقافة
 العربية من الرياضيات فى جملتها . وقد تغنى العناوين هنا عن التفصيلات
 التى تلتبس فى مطولات هذا الباب . فإن الجبر يعرف باسمه العربى فى
 جميع اللغات الأوربية لأن الأغرريق وقفوا به عند القواعد الأولى التى
 أثبتها ديوفانتس Dioplantus الاغريقى السكندرى فى القرن الثالث
 للميلاد ، وقد نلخص جوستاف لوبون تجديدهم فى هذه العلوم فقال إنهم
 أدخلوا الخط المماس إلى حساب المثلثات وحلوا المعادلات المكعبة وقد توسعوا
 فى مباحث الخروطات وأحلوا الجيوب محل الأوتار وانشأوا النظريات
 الأساسية لحل مثلثات الأضلاع ، وروى عن بعض الثقات أن تجديدهات
 العرب فى هذه المسائل وأمثالها كانت ثورة علمية بعيدة الآثار

وليس بالشرقيين غلو فى القول إذا ارتفعوا ببعض الرياضيين الإسلاميين
 إلى الذروة العليا فى علوم الرياضة جمعا . فان الأستاذ كارل ساخاو الذى

كان استاذاً للغات السامية في جامعة فيينا يقول عن البيروني أنه أعظم العقول التي ظهرت في العالم ،

والأستاذ لالاند الفلكي الفرنسي المشهور في القرن الثامن عشر يقول عن البتاني أنه واحد من عشرين رياضياً ظهروا في العالم القديم والعالم الحديث .

ومن تمحيص القول في نشأة العلوم الرياضية أن نلغى منه اللغو الذي يتداوله بعض الأوربيين المحدثين ليؤثروا الأغريق وحدهم بالفضل في ابتداع الهندسة وتطبيق الرياضة النظرية على الفلك وسائر الفنون . فقد بلغت العصبية « الأوربية » ببعضهم أن يهزوا إلى طاليس فضل الأبناء بالكسوف قبل وقوعه وينسوا الحقائق الحسية التي تدل على سبق المصريين والبابليين في هذه الدراسات . ومن هؤلاء من يكتب عن تاريخ الفلسفة الأغريقية قديمها وحديثها — كجون برنيت Burnet — أو يكتب خاصة عن تاريخ هذه الفلسفة من طاليس إلى أفلاطون ويفعل عما كتبه أفلاطون نفسه في نشأة الرياضيات . لأن أفلاطون قرر في حوار فيدراس أن توت الإله المصري هو الذي اخترع الحساب والهندسة والفلك وكتابة الحروف ، وكان ينعى على قومه أنهم لا يعنون بهذه العلوم عناية المصريين كما جاء في الفصل السابع من قوانينه حيث قال : « ان الأحرار عليهم أن يتعلموا من هذه المسائل بمقدار ما يبذل للتعليم في مصر لعدد كبير من الأطفال حين يتعلمون الكتابة » وأن أطفال المصريين يتدرجون من تعلم الجمع والطرح

والقسمة إلى التمرينات في قياس الأطوال والسطوح والمكعبات . ثم ختم الكلام الذى ورد في ذلك الحوار على لسان الأثينى آسفاً لذلك الجهل المحجل المضحك الذى أطبق على سائر بنى الإنسان في هذه الدراسات .

وقد كان أقليدس - الذى ينسب إلى صور - يتلقى العلم على تلاميذ أفلاطون في أثينا ويسمع منهم أمثال هذا الكلام عن شغف الحكماء المصريين بالدراسات الرياضية وسعة المجال الذى يدرسون فيه الرياضيات على الإجمال ، فلا جرم يرحل بعد ذلك إلى الإسكندرية وينبغ بعد ذلك في هندسته نبوغاً لم يسجل لأحد من الأثينيين الذين اقتصروا على معارف بلادهم في هذا الباب ولم يرحلوا عنها إلى مصر أو بين النهرين .

وطاليس نفسه قد حضر إلى مصر وقال هيرونيمس Heronymus الرودسى « أنه لم يتعلم قط إلا في أيام رحلته إلى مصر واختلاطه هناك بالكهان » .

وهيرودوت هو الذى روى لنا قصة أبناء طاليس بالكسوف قبل وقوعه ، وهو الذى روى كذلك أن الإغريق أخذوا آلة قياس الانتقال الشمسى والاعتدالين بالظلال من البابليين ، وتواترت الأقوال في كتب التاريخ الرياضى بأن البابليين قد رصدوا الكسوف وحسبوا له دورة تتم بعد مائتين وثلاث وعشرين دورة قمرية أى في ثمانى عشرة سنة وأحد عشر يوماً وطبقوا ذلك الجساب من أزمنة مجهولة قبل كل رصد منسوب إلى الإغريق .

فليس مما يليق بالعالم أن ينكر الحقيقة تعصباً لجنس من الأجناس ، لأن العلم الصحيح وحب الحقيقة لا يفترقان . ومهما يكن من غلو الفالين في تقويم حصة الأغريق من التراث الرياضى فالحقيقة التى لا تقبل النزاع أنهم أخذوا من الشرق قبل أن يأخذ منهم الشرق ، وأن أبناء هذا الشرق هم الذين أعطوا الأوربيين وديعة تلك الحصة كبرت أو صغرت ، وزادوا عليها ما زادوه بالتنقيح والابتكار .

الأدب

كتب الأستاذ جب Gibb في مجموعة ترات الإسلام فصلاً ممتعاً عن أثر العرب في الآداب الأوربية استشهد فيه بكلمة للأستاذ ما كييل Mackail من محاضراته على الشعر قال فيها : « أن أوربة مدينة لبلاد العربية بنزعتها المجازية الحماسية Romance كما هي مدينة بعقيدتها لبلاد اليهودية » . . . « وأنتا - يعني الأوربيين - مدينون لبطحاء العرب وسورية بمعظم القوى الحيوية الدافعة - أو بجمع تلك القوى - التي جعلت القرون الوسطى مخالفة في الروح والخيال للعالم الذي كانت تحكمه رومة »

ولا يقر الأستاذ جب كل هذا التعميم والاطلاق ولكنه لا يبطله كل الابطال ولا ينفى الأثر الذي تركه الأدب العربي في شعر الأوربيين ونثرهم منذ القرن الثالث عشر إلى القرون الحديثة ، وإن كان يرجح أن هذا الأثر قد تسرب من طريق الايجاء والرواية اللسانية بين المسلمين الذين كانوا يتكلمون العربية وبعض اللغات الأوربية وبين شعراء فرنسا الجنوبيين ممن لم تثبت معرفتهم بالعربية على التحقيق

والذي نعتقده على أية حال أن العقل يأبى كل الأباء أن قيام الأدب العربي في الاندلس يذهب من صفحة التاريخ الأوربي بغير أثر مباشر على

الأذواق والأفكار والموضوعات والدواعى النفسية والأساليب اللغوية التي تستمد منها الآداب .

ويزيدنا اعتقاداً لذلك أن أوربه كانت تتلقى آثار الثقافة العربية من ثلاث جهات متلاحقة في القرون الوسطى . أولاها جهة القوافل التجارية التي كانت تغدو وتروح بين آسيا وأوربه الشرقية والشامية من طريق بحر الخزر أو طريق القسطنطينية ، وربما كانت هذه هي الطريق التي وصلت منها أطراف الأخبار الإسلامية إلى بلاد السكنداف .

والجهة الثانية هي جهة المواطن التي احتلها الصليبيون وعاشوا فيها زمنا طويلا بين سورية ومصر وسائر الأقطار الإسلامية .

والجهة الثالثة هي جهة الأندلس وصقلية وغيرها من البلاد التي قامت فيها دول المسلمين وانتشر فيها المتكلمون باللغة العربية .

وقد اقترنت بموضوعات الأدب العربي أسماء طائفة من عباقرة الشعر في أوربه بأسرها خلال القرن الرابع عشر وما بعده ، وثبتت الصلة بينهم وبين الثقافة العربية على وجه لا يقبل التشكيك أولا يسمح بالإنكار .

ونخص منهم بالذكر بوكاشيو ودانتى وبتراىك الإيطاليين وشوسر الإنجليزي ، وسرفانتيز الأسباني ، وإليهم يرجع الأثر البارز في تجديد الآداب القديمة بتلك البلاد .

ففي سنة ١٣٤٩ كتب بوكاشيو Boccaccio حكاياته التي سماها « الصباحات العشرة » وحذا فيها حذو « الليالى العربية » أو ألف ليالة

وليلة التي كانت يومئذ في دور النشر والإضافة بين مصر والشام ، وقد ضمنها مائة حكاية من طراز حكايات ألف ليلة وأسندها إلى سبع من السيدات وثلاثة من الرجال اعتزلوا المدينة في بعض الضواحي فراراً من الطاعون وفرضوا على كل منهم حكاية يقصها على أصحابه في كل صباح تزجية للفراغ . وقد ملأت هذه الحكايات أقطار أوربة واقتبس منها شكسبير موضوع مسرحيته « العبرة بالخواتيم » All is well that ends well كما اقتبس منها لسنغ الألماني مسرحيته « ناثان الحكيم » .

وكان « شوسر » إمام الشعر الحديث في اللغة الانجليزية أكبر المقتبسين منه في زمانه ، لأنه لقيه حين زار إيطاليا ونظم بعد ذلك قصصه المشهورة باسم « قصص كانتربرى » وأدارها على محور يشبه المحور الذي اختاره بوكاشيو لقصص الديكاميرون ، ومنها قصة السيد التي اقتبس فيها إحدى قصص ألف ليلة وليلة واستهلها بالكلام على بلاط خان من خانات التتر أو المغول . ولم يزل الشعراء الغربيون ينسجون على هذا المنوال في نظم القصص الى عهد لونغفيلو Longfellow صاحب الديوان الذي سماه « قصص خان بمنعطف الطريق » .

وربما كانت صلة « دانتي » بالثقافة العربية أوضح من صلة بوكاشيو وشوسر . لأنه أقام في صقلية على عهد الملك فردريك الثاني الذي كان يدمن دراسة الثقافة الإسلامية في مصادرها العربية .

ودارت بينه وبين هذا الملك مساجلات في مذهب أرسطو كان بعضها

مستمداً من الأصل العربي ولا تزال نسخته المخطوطة محفوظة في مكتبة السير توماس بودلي باكسفورد . وقد لاحظ غير واحد من المستشرقين أن الشبه قريب جداً بين أوصاف الجنة في كلام محيي الدين بن عربي وأوصاف دانتى لها في القصة الإلهية ، وقد كان دانتى يعرف شيئاً غير قليل من سيرة النبي عليه السلام فاطلع على الأرجح من هذا الباب على قصة المعراج ووصف الإسراء ومراتب السماء ، ولعله اطلع على رسالة الغفران لأبي العلاء واقتبس من هذه المراجع كلها رحلته إلى العالم الآخر كما وصفها في القصة الإلهية ، وأكبر القائلين بالاقتباس على هذا النحو هو عالم من أمة الأسبان انقطع للدراسات العربية : وهو الأستاذ آسين بالسيوس

Asin Palacios

وعاش بترارك في عصر الثقافة العربية بإيطاليا وفرنسا وحضر العلم بجامعتي مونبليه وباريس وكتباها قامتاً على تلاميذ العرب في الجامعات الأندلسية أما «سرفانتس» فقد عاش في الجزائر بضع سنوات وألف كتابه «دون كيشوت» بأسلوب لا يشك من يقرأه في اطلاع كاتبه على العبارات العربية والأمثال التي لا تزال شائعة بين العرب حتى هذه الأيام . وقد جزم برسكوت Prescott صاحب الاطلاع الواسع على تاريخ الأسبان بأن فكاها «دون كيشوت» كلها أندلسية في اللباب

إلا أن الأثر الذي يفوق هذه المقتبسات الفردية جميعاً هو الأثر الشامل

الذى يعزى اليه أكبر الفضل فى إحياء اللغات الأوربية الحديثة وترقيتها إلى مقام الأدب والعلم بعد أن كانت مجفوفةً مزدراة فى حساب العلماء والأدباء ، وبعد أن كان كل أدب وكل علم لا يكتب بغير اللاتينية أو الإغريقية ، ولا يكاد يكتب فيها أحد غير رجال الدين ومن فى حكم رجال الدين ، وهم يقصرون الفهم على أنفسهم ولا يشركون فيه جمهرة الشعب ، ولا سيما طبقة السواد

فقد كان شيوع التعليم بالعربية سبباً لإهمال اللاتينية والإغريقية وخطوة لا بد منها لإحياء اللغات الشعبية وتداول الشعر والبلاغة والعلم من طريق غير طريق القسوس والرهبان المنقطعين للمباحث الدينية . ويروى لنا دوزى فى كتابه عن « الاسلام الأندلسى » رسالة ذلك الكاتب الأسباني — الفارو — الذى كان يأسى أشد الأسي لإهمال لغة اللاتين والإغريق والإقبال على لغة المسلمين . فيقول : « إن أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الأدب العربى فاحتقروا اللاتينية وجعلوا يكتبون بلغة قاهرهم دون غيرها ، وساء ذلك معاصراً كان على نصيب من النخوة الوطنية أوفى من نصيب معاصريه فأسف لذلك مر الأسف وكتب يقول : إن اخوانى المسيحيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم ويدرسون التصانيف التى كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون ، ولا يفعلون ذلك لادحاضها والرد عليها بل لاقتباس الأسلوب العربى الفصيح . فأين اليوم من غير رجال الدين من يقرأ التفاسير الدينية للتوراه والإنجيل ؟ وأين اليوم من يقرأ الإنجيل وصحف الرسل

(٥)

والأنبياء؟ وأسفاه . إن الجيل الناشئ من المسيحيين الأذكياء لا يحسنون
أدباً أو لغة غير الأدب العربي واللغة العربية ، وإنهم ليلتزمون كتب
العرب ويجمعون منها المكتبات الكبيرة بأغلى الأثمان ، ويطرغون في كل
مكان بالثناء على الذخائر العربية في حين يسمعون بالكتب المسيحية
فيأنفون من الإصغاء إليها محتجين بأنها شيء لا يستحق منهم مؤنة الالتفات .
فيا للأسى . إن المسيحيين قد نسوا لغتهم فلن تجد فيهم اليوم واحداً في
كل ألف يكتب بها خطاباً إلى صديق . أما لغة العرب فما أكثر الذين
يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب ! وقد ينظمون بها شعراً يفوق شعر
العرب أنفسهم في الأناقة وصحة الأداء . . . »

وقد قال دانتى إن الشعر الإيطالى ولد فى صقلية ، وشاع نظم الشعر
باللغة العامية فى إقليم پروفنس Provence حيث تلتقى الأمم اللاتينية
فى الجنوب ، فانتشر من ذلك الإقليم أولئك الشعراء الجوالون الذين عرفوا
باسم التروبادور Troubadour واشتق الأوربيون اسمهم هذا من كلمة
تروبر trobar وقيل فى رأى بعض المستشرقين إنها مأخوذة من كلمة
« طرب » أو طروب ، وإن اسم قصيدهم tenson « تنزو » مأخوذ من
كلمة « تنازع » العربية . . . لأنهم كانوا يلقون الشعر سجلاً يتنازعون فيه
المفاخر والدعاوى كما يفعل القوالون حتى اليوم بين أبناء البادية المحدثين ،
ولوحظ بين أوزانهم وأوزان الزجل الأندلسى تشابه جد قريب ، وقد
ظهر الزجل قبل ظهورهم وتغنى به المطربون وتداوله المنشدون فى البيوت

والأسواق ، ووجدت في أشعار الأوربيين بشمال الأندلس كلمات عربية ، وإشارات إلى عادات لم توجد بين قوم غير المسلمين ، وهي تخميس الغنائم واختصاص الأمير بالخمسة منها .

ولم تنقطع الصلة بين الأدب العربي — أو الأدب الإسلامي على الجملة — وبين الآداب الأوربية الحديثة من القرن السابع عشر إلى اليوم . ويكفي لإجمال الأثر الذي أبقاه الأدب الإسلامي في آداب الأوربيين أننا لا نجد أديباً واحداً من نوابغ الأديباء عندهم خلا شعره أو نثره من بطل إسلامي أو نادرة إسلامية ، ومنهم شكسبير وأديسون وبيرون وسوذى وكولردج وشلي بين أديباء الإنجليز ، ومنهم جيتي وهردر ولسنغ وهيني بين أديباء الألمان ، ومنهم فولتير ومنسكيو وهيغو بين أديباء الفرنسيين ، ومنهم لافونتين الفرنسي وقد صرح باقتدائه في أساطيره بكتاب كليلة ودمنة الذي عرفه الأوربيون من طريق المسلمين .

ولقد تأثرت القصة الأوربية في نشأتها بما كان عند العرب من فنون القصص في القرون الوسطى : وهي المقامات وأخبار الفروسية ومغامرات الفرسان في سبيل المجد والغرام ، وترى طائفة من النقاد الأوربيين أنفسهم أن رحلات جليفر التي ألفها سويفت ورحلة روبنسون كروزو التي ألفها ديفوى مدينة لألف ليلة وليلة ، ورسالة حي بن يقظان التي ألفها الفيلسوف ابن طفيل ، وقد كان لألف ليلة وليلة بعد ترجمتها إلى اللغات الأوربية أول

القرن الثاني عشر أثر يربى على كل آثارها السماعية قبل الترجمة المطبوعة ، واقترن ذلك بنقل التصانيف الأخرى التي من قبيلها فأصبح الاتجاه إلى الشرق حركة مألوفة في عالم الأدب كما كانت مألوفة في عالم السياسة والاستعمار .

على أن المدرسة المجازية الحماسية في أوربة القرون الوسطى إنما هي وليدة الحياة الحماسية المجازية التي سرت إلى الغرب كله من فاتحي العرب والمسلمين بالقدوة العملية التي لا فكاك منها . ويعتقد « أبانيز » الكاتب الإسباني المشهور — كما يرى القارى في موضع آخر من هذا الكتاب — أن أوربة لم تكن تعرف الفروسية ولا تدين بأدابها المرعية ولا نخوتها الحماسية قبل وفود العرب إلى الأندلس وانتشار فرسانهم وأبطالهم في أقطار الجنوب ، وهو اعتقاد يعززه كثير من الأسانيد ، ولعل أقوى الأسانيد التي تعزز ذلك النموذج العسكري الجديد الذى لم يكن معهوداً في أبطال الوقائع الرومانية أو الإغريقية ، وذلك الغرام الملهب الذى لم يسبق له نظير في غزل الغربيين من أهل الجنوب أو الشمال ، وذلك التقديس المعشوقة على نمط العذريين أو على النمط الذى أجاز لمتصوفة المسلمين أن يمزجوا بين نعمة العبادة ونعمة التشبيب ، ولم يكن تشبيب العاشق بالحبيب يرتفع في آداب الغرب إلى هذا المقام .

وقد بلغت المفردات العربية التي أضافها الأسبان وأهل البرتغال إلى لغتهم ما يملأ معجماً غير صغير ، ولكن العبرة مع ذلك بدخول تلك

المفردات في الحياة الاجتماعية والمقاصد النفسية لا بمجرد دخولها في صفحات المعجمات ، فانها لم تتمثل على الألسنة إلا بعد أن تمثلت في أحوال المعيشة ونوازع الإحساس والتفكير ، ومن هنا يعزى إليها من فعل الإيحاء والتوجيه أضعاف ما يعزى إليها من فعل النقل والتلقين .

الفنون الجميلة

فنان جميلان لم يكن لهما نصيب كبير في الحضارة العربية ، وهما التمثيل والتصوير بنوعيه : ونوعاهما الرسم والنحت ، أى صنع التماثيل وشأن العرب في ذلك كشأن كثير من الأمم الشرقية أو الغربية ، فإن التمثيل والتصوير لم يكونا في التاريخ القديم من الفنون الشائعة بين شعوب الحضارة ، ولا بين شعوب البداوة من باب أولى .

وقد نشأ التمثيل حيث نشأ في بلاد الإغريق من بعض الشعائر الدينية التي كانت تقام في موسم إله الخمر والصبوة ديونيسس Dionysus وكان في أول عهده مقصوراً على الرقص والغناء ، ثم أضيف إليه ممثل واحد يشغل الوقت بين الرقصات والأغاني ببعض الألعاب والتراتيل ، ثم أضيف إلى الممثل الواحد زميل فزميلان ، وتعددت الأدوار في العرض الواحد تبعاً لهذه الزيادة وهذا التنوع ، حتى نشأت الرواية المسرحية على وضعها المعروف عند قدماء الإغريق .

فالشعوب التي خلت عباداتها الدينية الأولى من أمثال هذه الشعائر لم تخلق فيها فرصة لتطور فن التمثيل على هذا المنوال ، وربما كان في المجتمع العربي سبب آخر من الأسباب التي حالت دون تطور التمثيل من أصل

اجتماعى غير أصول العبادات . فان التمثيل بعض الفنون التى ترتبط بالحياة الاجتماعية أوثق ارتباط ، ولا يعقل التمثيل فى بيئة لم تتعدد فيها أدوار الحياة الاجتماعية على حسب اختلاف الأعمال والصناعات والمشارب والطبقات ، فانما يقوم التمثيل من الناحية الاجتماعية على التجاوب بين الأفراد والأسر كلما تعددت العلاقات وتنوعت المطامع والنزعات ، ولم يكن فى مجتمع البداوة مجال كبير لهذا التجاوب الكثير بين أسرة وأسرة وبين إنسان وإنسان ، وما كان من ذلك قائماً فى حياتهم البدوية أو حياتهم الحضرية فقد وجد الكفاية للتعبير عنه فى القصائد والأغاني وألعاب الفروسية وضروب المساجلات والمفاخرات التى تتفق لهم من حين إلى حين .

أما التصوير فقد قيلت فى تعليل نقصه عند العرب أقوال شتى لا تستند إلى رأى جدير بالإقناع ، ومنها أن قلة التصوير من قلة الإحساس أو قلة انطباع المحسوسات فى النفس بتلك القوة التى تفيض عنها فتتمس لها مخرجاً بالتمثيل والتجسيم .

ولما قيل إن التصوير لم يبلغ مده من التوسع والارتقاء فى الحضارة العربية لأسباب دينية قال المتهمون للقرينة السامية إن تحريم الصور والأنصاب إنما هو نتيجة لضيق الحظيرة ونضوب الحس وليس هو بالسبب الأصيل لأعراض العرب عن رسم الصور ونحت التماثيل

قالوا : ولولا انقطاع التعاطف الحى بين العربى وبين الحيوان لما صدف

عن تشبيه الأحياء وتصويرها في الأبنية والأوراق كما صنع أبناء الأمم الأخرى في الشرق القديم .

ولكن الصحيح الذى ينسأه أصحاب هذه الأقاويل أن الشعوب الأخرى لا تعرف تعاطفاً حياً بين الإنسان والخلائق الحية التى تلازمه أوثق ولا أكرم من التعاطف الذى كان بين العربى والجواد أو الناقة أو كلب الصيد أو ظباء الفلاة ومهاها وطيورها وسائر حيواناتها . وقلما نظم شاعر عربى فى عهد البداوة قصيدة من الشعر إلا استهلها بوصف محبوب أو وصف جمل أو ناقة أو وصف جواد كريم ، ولم يشبه الشعراء فى أمة من الأمم القديمة جمال الأحباب والحسان بجمال المها والظباء كما فعل شعراء العرب الأسبقون ومن اقتدى بهم من الشعراء اللاحقين ، وهذا ولا شك إحساس نافذ قد وجد سبيله إلى التعبير بفن من الفنون المسورة لأبناء الصحراء . إذ ليس التصوير وحده وسيلة للتعبير عن الإحساس ، ولا سيما التعبير فى بيئة بدوية تمتنع فيها أدوات التصوير .

وجدير بالذكر فى معرض الكلام على تحريم الصور أن هذا التحريم قد دان به أناس كثيرون فى آسيا الصغرى واشتهرت به طائفة كبيرة من طوائف الكنيسة الرومانية الشرقية عرفت باسم محطى الأصنام أو الأيقونات Iconoclast وكانت دعوتها فى القرن السابع مقدمة لانفصال الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية . ولم تخل الكنيسة الغربية بعد هذا الانفصال من أتباع أشداء يدينون بمذهب أولئك المحرمين . ولولا احتضان المعابد

لفن النحت والتصوير لكان من المشكوك فيه أن تقي المطالب الاجتماعية وحدها في أقطار أوربة بحاجة هذين الفنين وحاجة المشتغلين بهما من نوابغ المصورين والمثالين .

ويجوز أن يقال في هذا الصدد إن الفرق بين العرب والأوربيين في تطور النحت والتصوير إنما هو فرق بين تخطيط المسجد وتخطيط الكنيسة كما توحيه العقيدتان .

فلم يكن في الإسلام محل للوسطاء بين الله والإنسان ، وليس فيه من ثم محل "لأسرار الكهانة ومحاريبها ولا لتجسيم الإله والقديسين ، وليس بالمنظور من العبادة الإسلامية مع هذا الاعتقاد أن تحتضن الفنون التي تزخر المعابد بالصور والتماثيل ، وليس أفعال في تشجيع الفنون من رعاية المعبد وغيره العقيدة ، وهما قد فعلا في ترقية فن البناء بين المسلمين ما فعلته الرغبة في تمجيد القديسين من ترقية النحت والتصوير بين الأوربيين .

فالمسجد لا يحتضن الصور والتماثيل فلم يتسع لها المجال في الحضارة الإسلامية كما اتسع لها في الأقطار الأوربية .

ولكنه لا يمنع البناء الجميل والقباب الفاخرة فكان هو أساساً لفن العمارة العربية الذي ضارع أجمل فنون البناء في القديم والحديث .

وقد كانت للسليقة العربية - أو الشرقية - سمة خاصة فيه تدل على طابع مستقل عن الأساليب التي اقتبس منها العرب فنون البناء .

فمن الخطأ أن يقال مثلاً أن الأسلوب البيزنطي هو أساس المدرسة التي

اتخذت البناء في الشرق على هذا الطراز ، لأن الطراز البيزنطي نفسه نفحة من نفحات الشرق التي خالفت بينه وبين أساليب القارة الأوربية من قوطية أورومانية ، ولولا هذه النفحة من روح الشرق لما حدث هذا الاختلاف بين بناء بيزنطة وبناء الجرمان أو الطليان

ومما لا شك فيه أن العرب قد اعتمدوا على فنون البناء في الأمم التي سبقتهم إلى هذه الفنون ومنهم الفرس والروم والمصريون ، وأنهم قد استعانوا بالبنائين من القبط والأرمن في كثير من العمارات ، ولكن الذي لا شك فيه كذلك أن اليد الصانعة لم تكن في الحقيقة إلا الأداة المعبرة عن الروح العربية التي لا تلبس بغيرها . فمن ذا الذي يتملى منظراً من مناظر القصور العربية ويعزل بينه وبين رشاقة النخلة الهيفاء وخفة الفرس الضامر وهو دج الحرم المكنون وتناوب الحياة بين الفضاء والظلال ؟ ومن ذا الذي ينظر إلى تلك الأقواس والنوافذ ولا يعقد الصلة بينها وبين الحافر تارة والخف تارة أخرى ؟ بل من ذا الذي يسمع المقابلة بين المصارع والقوافي في الشعر العربي ولا يلمح المصدر الذهني الذي أوحى بها مائلا في الأنساق والمقابلات أو في المربعات المتقابلة كما ظهرت في أول بناء مقدس حج إليه العرب وهو البيت الحرام ؟

فالروح العربي قد أضفى مثاله على طراز البناء المنسوب إليه بغير مرأ ، فلا يرى الناظر بنية عربية ثم يخطر له أنها من وحى أوربة أو وحى الصين أو وحى فارس على تشابه الطرز والأقاليم في بعض الصفات

ونحسب أن هذا الطابع الصراح هو الذى منع اقتباس الطراز العربى بتفصيلاته فى الأقطار الأوربية التى اتصلت بالحضارة الإسلامية ، لأنه إما أن يكون طراز إقليم أو طراز مسجد ، وكلاهما لا يقتبس بتفصيلاته لاختلاف المناخ والعقيدة والمراسم الدينية

ومع هذا اقتبس الأوربيون ما وسعهم اقتباسه من طراز البناء العربى متفرقاً فى القصور والقلاع والأماكن التى لا شأن لها بالعقائد والمراسم الدينية فشاع فى إنجلترا على عهد الملكة اليصابات وما بعده بعض النقوش البارزة التى أطلقوا عليها اسم النقوش العربية Arabesque وبنوا قلاعهم بعد الحروب الصليبية على طراز يقارب الطراز العربى فى مضاعفة الجدران وإقامة البروج ما بينها وتخطيط الحصون المركزة وإقامة الأبواب المنحرفة ذات الزوايا القائمة التى تحول دون استخدام الباب عند الوصول إليه لتصويب القذائف إلى الأفنية الداخلية ، وقد أخذوا من الكنائس الشرقية التى تأثرت بالطراز العربى أنماطاً من الزوايا والبروج المستديرة لم يكن لبناء الكنائس عهد بها فى الغرب قبل الحروب الصليبية .

ولا أدل على مدى السلطان الفنى الذى كان لمصنوعات العرب بين الأوربيين من محاسنهم لها بغير تصرف فيها دون أن يفهموا معناها ، ومنها ما كان حروفاً مكتوبة ينقلها الصياغ وهم لا يحسنون قراءتها ، لأنهم حرصوا على محاكاة الزخارف والمزركشات العربية كما رأوها على الأقمشة والمعادن والأخشاب المرصعة أو المنقوشة ، وقد ذكر الأستاذ توماس أرنولد فى كتاب

تراث الإسلام أنهم عثروا في إيرلندا على صليب من مصنوعات القرن التاسع على الأرجح نقشت البسمة على زجاجة في وسطه بالحروف الكوفية، واشتملت كنيسة بمدينة فلورنسة في منظر تنويج السيدة العذراء على أنسجة بين أيدي الملائكة منقوشة بالحروف العربية، ودخلت الأشكال الشرقية على هذا النحو في ظهارات الصور وبين المناظر المرسومة على الجدران فكان لها نصيب من توجية فن الرسم عند نهضته في القرون الوسطى .

على أن العرب لم يتجافوا الصور بته في عصور الجاهلية أو عصور الدولة الإسلامية ، لأن أشعارهم حافلة بأوصاف الدمى والعرائس والتصاوير في الملابس والمباني والآنية وحلى الزينة وقصور الملوك والأمراء ، وقد أشار النابغة إلى دمي الرخام حين قال :

أودمية من مرمر مرفوعة بنيت بأجر تشاد وقرمد

وأحصى البجائة المرحوم أحمد تيمور باشا في كتابه القيم عن التصوير عند العرب مئات الأبيات التي تدل على انتشار الرسم والنحت ومصنوعات هذين الفنين في المباني والمصوغات والمنسوجات التي يصنعها المسلمون ، وأتى على أسماء كثيرين من مصوري العرب الذين فرغوا لنقش الرسوم أو نحت التماثيل من المعادن والأحجار .

وليس بنا في هذا الفصل أن نتوسع في الشواهد والأمثلة التي تدل على وجود الصور والمصورين في الحضارة العربية ، فإنما يعيننا هنا أن العرب لم ينفردوا بالتخلف في فني التصوير والنحت بين أمم العصور القديمة وأنهم لم

يقصروا فيهما لنقص في الحاسة الفنية أو العواطف الحيوية ، وقد كان ذوقهم
الفنى زمنًا من الأزمان قدوة للأوروبيين في مجال الفن الذى يعم
القصور والبيوت والمصانع والأسواق ، ولا ينحصر فى دوائر الفن
ومراسم ذويه .

الموسيقى

أما في الموسيقى فالاختلاف ظاهر بين الموسيقى العربية وموسيقى العصر الحديث في أوربة ، من القرن الثامن عشر إلى الآن .

ولكن هذا الاختلاف لا يرجع إلى فارق أصيل بين الفطرة العربية والفطرة الأوربية ، كما خطر لبعض المحدثين الغربيين في معرض المفاضلة بين العناصر والأجناس .

لأن الموسيقى الأوربية القديمة كانت على مثل هذا الفارق بينها وبين الموسيقى الأوربية في أطوارها الأخيرة . فكانت موسيقى اليونان والرومان قائمة على الأغاني الحسية أو على الأنغام التي تصاحب الرقص والغناء ويتغلب فيها قصد الطرب على قصد التعبير ، وكانت الألحان الأوربية إلى ما قبل القرن الثامن عشر ألحان ترنيم وتنغيم ولم تكن ألحان تنسيق وتنويع على الأسلوب الذي سماه المحدثون « بالهرمونية » أو فن تناسق الألحان المختلفة .

والأوربي الحديث مع هذا لا يطرب لموسيقى «الهرمونية» فطرة وارتجالاً بغير تعليم أو تدريب . فإذا تعددت الأنغام وتفاوتت الطبقات واتسع نطاق التباعد بين القوافي المرددة فالسامع الأوربي يضل طريقه إليها ويشعر بالجهد

والإعياء في محاولة التوفيق بينها وربط فواصلها وانتظار اللازمة التي تسرى بين فصولها . ولا بد له من إحاطة واسعة بمواضع الإيقاع وطبقات الأنغام ، حتى يسيغ تلك الموسيقى المركبة ويعتبط بسماعها اغتباط المرء بفنون الذوق والجمال . وقد يكون على أوفى نصيب من الفن الموسيقى الرفيع ، ثم يستمع إلى توقيع جديد فينفر منه حتى يسيغه ويستعذبه بعد التأمل والأناة . وفي ذلك يقول الأستاذ دوجلاس مور Douglas Moore أستاذ الموسيقى بجامعة كولومبيا في كتابه « من الأنشودة إلى الموسيقى العصرية » :

« إن السامع الذي تدرّب على سماع النماذج السهلة خليق أن يشعر بالانقباض إذا أحس أنه يضل طريقه عاجلاً وهو يصغى إلى السيمفونية . فليطمئن إذن ولا يأس على ذلك . لأن ما يتفق له من هذا القبيل يتفق لغيره على نحو من الأنحاء بالغا ما بلغ نصيبه من التدرّب والاختبار . إذ أن قدرتنا على الانتباه المركز أضيق من أن تتسع كثيراً لتعليق الإصغاء مع صحة السماع ، وأهل الصناعة أنفسهم يرتاحون للمألوف من الموسيقى فوق ارتياحهم إلى الجديد منها ، لأن مجهودهم في الإصغاء إلى المألوف قليل بالقياس إلى الجديد . ولكن المرانة والدأب على الانتباه مع الصبر والتفهم يمهدان الطريق إلى الألفة ويعجلان بتمهيده ، فتزداد القدرة على استيعاب معاني الموسيقى الجليلة وآياتها الرفيعة أوفر مزيد . . . »

فالذي طرأ على الموسيقى الأوربية الحديثة من التنوع والتركيب قد باعد بينها وبين موسيقى اليونان والرومان كما باعد بينها وبين موسيقى

العرب والشعوب الشرقية على التعميم ، ولم يكن طارئاً على الفطرة الأوربية أو الفطرة الإنسانية وإنما كان طارئاً من طوارئ المعارف والمخترعات بعد التوسع في علم الصوت وتركيب الآلات وتلقيح الموسيقى الحسية بموسيقى العبادات ثم بموسيقى السبجات الروحية والتأملات الفلسفية .

فقد تباعد الاختلاف بين الموسيقى القديمة والموسيقى الحديثة في اليوم الذي اتسعت فيه للاشتغال على العواطف الدينية والصلوات الإلهية ، وأصبح السامع يصفى إليها في محاريب العبادة وهو متهيأ للخشوع والإنابة إلى عظمة الله والغوص في سرأر الأكوان . فلما اتسعت الموسيقى لهذه التعبيرات العليا لم يكن لها أن تضيق بتعبيرات الحكمة العميقة والبداهة الصوفية والنفحات العبقريّة التي شاع سلطانها في أوربة بعد وهن السلطان الديني فيها من جراء ثورات التمرد والتجديد ، وليس بعجيب من أجل هذا أن تكون بلاد الموسيقى الكنسية هي بلاد الموسيقى الهرمونية أو بلاد الموسيقين الذين أبدعوا في الأوبرا والسيمفوني وسائر فنون التركيب ، وهي على الأغلب بلاد أسبانيا وإيطاليا والنمسا وألمانيا ثم روسيا التي شاعت في كنائسها فرق الترتيل والتقسيم ، وقد يلفت النظر في هذا الصدد أن الأقاليم التي انقضت فيها سلطان الموسيقى الكنسية مرة واحدة — وهي أقاليم ألمانيا اللوثرية — كان نصيبها من كبار الموسيقيين دون نصيب الأقاليم التي اتصل فيها القديم بالحديث .

إلا أن الصلة لم تنقطع بين العرب وبين تطور الموسيقى الأوربية في هذا الطريق .

لأن الأندلس هي البلاد التي تلتق فن الأنغام على العرب وامتزجت فيها الموسيقى الحسية بموسيقى العبادة عدة أجيال بعد زوال الدولة العربية ، فكان للاسبان رقص ديني ترعاه الكنيسة وتنعقد فيه الصلة بين موسيقى الأقدمين وموسيقى المحدثين .

ومن الحقائق المقررة أن أبناء أوربة الغربية كانوا يتعلمون أفانين الأنغام على أساتذة من العرب الأندلسيين، وأنهم نقلوا أسماء بعض الآلات بألفاظها العربية فبقيت في اللغات الأوربية حتى اليوم بعد تصحيف يسير . فكلمة لوت Lute من العود ، وكلمة نكر Naker من النقارة وكلمة Clè أو المفتاح الموسيقى من أقليم وكلمة Rebec من الرباب ، وأزياء الفنانين التي توارثها أوربة بعد تبدل أسبابها قد بقيت مشابهة لأزياء المغنين حين كانوا في المغرب يتجملون كما يتجمل القيان فيرسلون الشعر ويطلون الخدود ويكحلون الجفون .

على أن بعض الأوربيين الخبراء بتاريخ الموسيقى العربية — كالأستاذ فارمر Farmer يرون أن العرب قد سبقوا الأوربيين إلى نوع من الهرمونية يسمونه « التركيب » ويعنون به توقيع النغمة الواحدة من عدة طبقات في وقت واحد ، وهو غير الهرمونية كما تفهم اليوم ولكنه خطوة إليها من طريق الترقيم المعهود .

ولا خلاف بين المؤرخين في تداول العلماء الأوربيين لبحوث العرب في الموسيقى النظرية ، فإنهم على قلة ما ترجموه من تلك البحوث قد كان منهم مئات يطلبون العلوم بمدارس قرطبة وغيرها ومنها الموسيقى النظرية ، وقد كانت الخبرة باللغة العربية شرطاً من شروط الرجل المثقف بين الأسبان المسيحيين . فكان طلابهم في جامعة اكسفورد الإنجليزية يسخرون من العالم المشهور « روجر باكون » كلما أخطأ في الترجمة اللاتينية عن العربية ، لأنهم كانوا يطلعون فيها على النص الصحيح .

وقد خيل إلى بعض النقاد الأوربيين في الزمن الحديث أن أصوات العرب لم تكن تحتل التفخيم والارتفاع قياساً على ما يسمعونه في الأسواق من الصيحات البدوية التي تغلب عليها الحدة و « النحافة » ... وهو تخيل كان خليقاً بهم أن يعلموا مكانه من الخطأ إذا حضروا في أذهانهم « الحداء » في الصحراء وهو غناء العرب القديم ، وفيه ما فيه من مجال للأصوات التي تملأ الفضاء وترتفع إلى جميع الطبقات .

وليس بين الموسيقى العربية والموسيقى الأوربية فرق أصيل في السلم المعتمد عند العرب والأوربيين . إلا أن الموسيقى العربي المثبت بالمألوفات يعزى بما يسميه ربع المقام ويحسبه فرقاً جوهرياً بين أنغام الشرقيين وأنغام الأوربيين . ولكن ملاحظة هذا « الربع » ليست شرطاً للسمع في الآذان العربية ، وإنكاره ليس شرطاً للسمع في الآذان الأوربية .

وقد صنع الموسيقى الحديث هانس بارت Hans Barth بياناً لوحظ فيه ربع المقام ، وألف إيفان وشنجرادسكى Ivan wischnegradsky كتاباً فى الربع والموسيقى الهرمونية ، ووضع ألواز هابا Alois Haba أوبرا وتوقيعات أخرى على قاعدة الربع الملحوظ فى الأغانى العربية ، وصنع جوليان كاريلو Julian Carello قيثارا على هذه القاعدة ولحن بها جون إيليبى Appleby موضوعاً يدور على حديث لسقراط ، وأنشأ نيقولا رمسكى كورساكوف Korsakof جماعة لدراسة ربع المقام منذ نيف وعشرين سنة فى لنینجراد « راجع موسوعة مكملان للموسيقى والموسيقين » .

وهؤلاء عدا الموسيقين الذين أدخلوا الأنغام العربية فى تقسيماتهم المسرحية وغير المسرحية أمثال روبنشتين وفليكان دافيد وسان سنس Saint Saëns وقربوا بين الترنيمة والهرمونية بعض التقريب .
فإذا شاعت هذه القاعدة فى أوربة ودخلت فى تركيب الآلات وتوزيع الأدوار فهى أثر جديد للفن العربى يضاف إلى الأثر القديم .

الفلسفة والدين

من الآراء التي شاعت بين الأوربيين في القرن التاسع عشر أن الأمم الشرقية تطلب العلم للمنفعة ولا تطلبه للمعرفة والمتعة العقلية ، كما كان يطلبه الإغريق في الزمن القديم

وآية ذلك عند أصحاب هذا الرأي أن المصريين والبابليين والفرس والهنود كانت لهم علوم يتدارسونها ولكنها كانت كلها من قبيل الصناعات التي تنفعهم في البناء والزراعة وعلاج الإنسان والحيوان ، وأن الإغريق وخدمهم هم الذين عرفوا العلم والفلسفة كلفاً بالبحث والنظر المجرد لغير منفعة مقصودة من منافع المعاش

وهذا الرأي يروج بين الأوربيين بغير تمحيص ولا مناقشة ، لأنه يعجبهم ويرضى غرورهم ومصالحتهم في وقت واحد : يرضى غرورهم لأنه يميزهم على الأمم الشرقية بأشرف المزايا الإنسانية ، ويرضى مصالحتهم لأنه يسوغ لهم استعمار الشرق واستغلاله في عصر الاستعمار والاستغلال

ولكن الطريف في الفكرة أنها هي نفسها ليست من الأفكار الفلسفية أو العلمية التي تخلو من المنفعة والتسليم بغير سبب معقول . فإن العقل المطبوع على الفلسفة والبحث المجرد لا يقبل أن يتركب العقل الإغريقي طبعاً واصلاً

على غير التركيب الذى استقر فى السلالات البشرية الأخرى ، ولا يستريح إلى هذا الحكم المعتسف بغير علة يرد إليها هذا الاختلاف العجيب فى أصل التركيب .

والواقع أنه لا اختلاف هناك فى أصل الطبيعة بين العقل البشرى فى الإغريق والعقل البشرى فى السلالات الشرقية التى ذكروها ، وإنما يقع الاختلاف لأسباب موضعية تجوز على الإغريق كما تجوز على المصريين والبابليين والعرب والفرس والهنود .

وإنما امتاز الإغريق بالبحوث الفلسفية فى زمن من الأزمان لسبب واضح : هو أن هذه البحوث كانت مباحة عندهم حيث كانت تمتنع على غيرهم من أبناء الدول الشرقية العريقة ، وهى لم تكن مباحة لهم لمزية أصلية فى طبيعة التركيب كما وهم القائلون بذلك الرأى المتعجل العسوف ، ولكنها أبيضت لهم لأن بلادهم نشأت وتطورت دون أن ينشأ فيها ملك قوى وكهانة قوية ، ولو قامت عندهم الدولة القوية والكهانة القوية كما قامت فى مصر وبابل لكان شأنهم فى أسرار الدين والمسائل الإلهية كشأن البابليين والمصريين .

فالبلاد التى تجرى فيها الأنهار الكبيرة تنشأ فيها الممالك الراسخة وتنشأ مع الممالك كهانات قوية السلطان تستأثر بالبحث فى أصول الأشياء وحقائق التكوين وتتولى شؤون العلم والتعليم كأنها حق لها مقصور عليها لا يجوز الافتيات عليه ، وإلا كان المفتت كالمعتدى على نظام الدولة ومحراب العبادة ،

ومتى طال الأمد بهذه الكهانات جيلاً بعد جيل وعصراً بعد عصر تمكن سلطانها وتشعبت دعاواها وتلبست معلوماتها بلباس الأسرار والطلاسم وابتعدت شيئاً فشيئاً من نطاق البحث الحر إلى نطاق المحفوظات والمأثورات ولو نشأ لليونان دولة كهذه الدول وكهانات كهذه الكهانات لما اجتروا على التعرض لمسائل الخلق والخالق وطبائع الكون ومكوّنه بين سواد الناس وجمهرة النظارة ويسمعهم من شاء منهم بلا رقيب ولا حسيب

اذ حدث للأوربيين ما حدث في الشرق حين قامت في بلادهم الكهانات القوية وبسطت سلطانها على التعليم ومعارض البحث في حقائق الدين وأسرار الطبيعة وقوانين الوجود . فبطلت الفلسفة والدراسات العلمية في القرون الوسطى وحيل بين الناس وبينها إلا بإذن من رجال الدين في حدود النصوص المقررة كما كانوا يفهمونها ويبيعون فهمها ، واستطاعت الكهانة الأوربية أن تفعل ذلك وهي حديثة العهد لم تبلغ من العراقة مبلغ الكهانة المصرية أو البابلية ، إذ كانت تعد أعوامها بالعشرات أو المئات القليلة وقد غبرت على الكهانات القديمة ألوف من الأعوام بعد ألوف

على أن الاغريق لم يتحركوا للبحث في الأسرار الإلهية والعلوم الطبيعية إلا بهداية من أمم الكهانات التي سبقتهم إلى التدين وعبادة الخالق العظيم ، يوم كانوا يجولون قدرة الخلق ولا يعرفون أنها صفة لإله العالم بأسره ، كما عرفها الموحدون أو المعددون في ظل الإله الواحد العظيم

كان في أرض الإغريق ، وفي جزيرة كريت ، أناس من السلالة

الإغريقية التي تشملهم على اختلاف القبائل واللهجات ، وكانت لهم حضارة يظهر من لقاء الحفر في مواضعها أنها ازدهرت قبل ميلاد المسيح بسبعة عشر قرناً على أقل تقدير ، فلم تكن لهم فلسفة ولا نبغ بينهم حكماء متفلسفون في طوال تلك القرون ، وإنما نبغ فلاسفتهم على الشواطئ الأسيوية أو الجزر القريبة منها بعد احتكاكهم بالأمم الشرقية ذوات الحضارة العريقة ، ولو لم يكن لعقائد الشرقيين وعلومهم فضل في تنبيه أذهان الإغريق إلى أصل الوجود وتقديرات الفكر الإنساني الأول لعلل الأشياء لما كان هناك معنى لظهور الفلاسفة الأولين على مقربة من تلك الحضارات ، وليس بصحيح أن الإغريق قصدوا الفلسفة النظرية ابتداء منذ أخذوا في البحث عن حقائق الأشياء. فإن فيثاغوراس كان يمزج الدين بالحكمة ويشرف على تنظيم الجماعات السرية التي تطمح إلى ولاية الحكومة ، وكان اكسينوفان Xenphanes يبشر بدين التوحيد وينحى على تعديد الأرباب ، وقد كان فيثاغوراس يؤمن كما يؤمن الهنود بتقمص الأرواح وثنائية الخير والشر والنور والظلام ودورات الحياة والأزمان، ويرى أنه لا نجاة للمرء من دوّلاب الطبيعة الذي تقيد به تلك الدورات إلا بالرياضة والتكشف وخلص النفس للمعرفة والحكمة ، وكان نباتياً يحرم أكل اللحوم على طريقة البراهمة ، وقد حدا حدوه في معظم آرائه إبيدوقليس ودخل جزء من فلسفته الروحية في مذهب أفلاطون

وليس أدل على الصبغة الشرقية في الفلسفة الإغريقية الأولى من غلبة

علم الفلك والرياضيات على رواد هذه الفلسفة الاسويين ، ومن غلبة الصبغة الدينية على فيثاغوراس واكسينوفان والمريدين لهذين الحكيمين ، ومن عدد السبعة الذى أطلق على الحكماء السبعة السابقين ومنهم تاليس وصولون . فان المعارف الفلكية تقدمت فى بابل ومصر قبل أن يتناولها الإغريق بألوف السنين ، والجماعات الدينية السرية انتقلت من بلاد السكمانات القديمة إلى آسيا الصغرى وما يليها ، وليس هذا كله مما يفهم منه أن السليقة الإغريقية هي التي ابتكرت البحوث الفلسفية أو كانت هذه السليقة ملازمة لها فى جميع العصور .

على أن المصادر الشرقية — ومنها التوراة وأقوال المصريين والبابليين — ظاهرة فى أقدم المذاهب الإغريقية وهو مذهب طاليس الذى لا يخلو مذهب فلسفى بعده من بعض آرائه . فهو كما قال الشهرستانى يرى « أن للعالم مبدعاً لا تدرك صفته العقول من جهة جوهريته وإنما يدرك من جهة آثاره ، وهو الذى لا يعرف اسمه فضلاً عن هويته إلا من نحو أفاعيله وابداعه وتكوينه الأشياء فلسنا ندرك له اسماً من نحو ذاته بل من نحو ذاتنا » . . . إلى أن يقول . « ونقل عنه أن المبتدع الأول هو الماء . . . والماء قابل لكل صورة ومنه أبداع الجواهر كلها من السماء والأرض وما بينها ، وهو علة كل مبدع وكل مركب فى العنصر الجسمانى . فذكر أن من جمود الماء تكونت الأرض ومن انحلاله تكون الهواء ومن صفوة الماء تكونت النار ومن الدخان

والأبخرة تكونت السماء ومن الاشتعال الحاصل من الأثير تكونت الكواكب . . . »

قال الشهرستاني : « وفي التوراة في السفر الأول مبدأ الخلق هو جوهر خلقه الله تعالى ثم نظر إليه نظر الهيبة فذابت أجزاءه فصارت ماء ثم نار من الماء بخار مثل الدخان فخلق منه السموات وظهر على وجه الماء زبد مثل زبد البحر فخلق منه الأرض ثم أرساها بالجبال . وكان ثالث الملقى انما تلقى مذهبه من هذه المشكاة النبوية . . . »

أما حب العلم للعلم فشان الإغريق فيه كشأن جميع الأمم والسلالات ، وحسبك أنهم سمو علم الهندسة علم « قياس الأرض » بعد تقدمه وظهور تطبيقات له غير مساحة الأرض وتقسيم المزارع والمروج . ولعل هذا مما يشير إلى الأصل الذي اقتبسوا منه معارفهم الهندسية ، لأن المصريين كانوا يحتاجون إلى إعادة مسح الأرض بعد الفيضان ، ولم تكن باليونان حاجة إلى المساحة والتقسيم كل عام

وإنما جاء الفارق الظاهر في أسلوب الاشتغال بالعلوم من ضعف الكهانات في الأوطان الإغريقية وقوتها في الأوطان الشرقية ، فما ابتدأ الإغريق بحوثهم مضوا فيها طلقاء من قيود الدولة والدين ، وتيسر لهم ما تعذر على غيرهم لهذا الفارق العرضي لالفارق في تركيب العقول وعناصر التفكير وليس أصعب من إثبات السلالة الإغريقية الخالصة لجميع الفلاسفة

الموزعين بين آسيا الصغرى وأرض يونان وجزر الأرخيبيل وصقلية والإسكندرية وتراقية ، وهي تشتمل على شتى الأجناس غير الإغريق ومن الواضح أن فيض البحوث الفلسفية عند الإغريق لم يكن ذلك الفيض الدافق العرم الذى يحطم القيود ويفتح السدود . لأن سداً من أضعف السدود التى ابتليت بها الأمم الشرقية فى تاريخها الطويل قد غيىض ما فاض من قرايح اليونان فى بضعه أجيال معدودات . فانقضى عصر الفلسفة اليونانية أمام صدمة مقدونية وأخرى رومانية ، وعاش الإغريق بعد ذلك فى بلادهم دون أن يظهر منهم فيلسوف واحد إلى هذه الأيام فلا جرم تفعل الحواجز والقيود التى استلزمها طبيعة تكوين الدولة فى الأمم الشرقية مثل ما فعلته فى اليونان خلال عصور الجمود والافتقار ، ولا حاجة بنا إلى تفسير آخر غير هذا التفسير نفوس فيه على أصول التركيب التى لا تقبل التعليل بعلة من علل الفلسفة أو علل الدراسة العلمية . فإما هى عوارض من أثر البيئة والتاريخ أصابت الساميين بأسبابها المعروفة كما أصابت الفرس والهنود أيضاً وهم غير ساميين ، ثم أصابت الإغريق والأوربيين أيضاً دهوراً طوالاً تحت سلطان الدول والكهانات ، فكانوا أضيق بالبحث العلمى صدرأً من شعوب الشرق جمعاء ، وحسبنا من ذاك محاكم التفتيش وعقوبات الاحراق والحرق .

ولم تكن للعرب فى الجاهلية دولة قوية كاللدول التى قامت بين النهرين أو على ضفاف النيل ، ولكنهم عاشوا عيشة البدو الرحل فى طلب الكلا

والماء أو عيشة البدو الرحل في تجارة القوافل بين الصيف والشتاء ،
واحوجتهم مطالب المعاش إلى الغزو والدفاع بغير هواة ولا انقطاع .
وما من أمة سامية أو غير سامية تقضى أيامها في أمثال هذه الشواغل ثم يتسع
لها المقام لدرس الفلسفة وتحصيل المعارف النظرية التي يعين عليها الأمان
والاستقرار . . .

ومن ضروب التجنى التي لا تحمد من العلماء أن يقال أن العقل العربي
لن يستطيع التفلسف بحال من الأحوال ، لان الفارابي وابن سينا مثلاً كانا
من سلالة فارسية على أشهر الاقوال ولم يكونا من سلالة عربية أو سامية ،
كانما كانت للفرس قبل ذلك فلسفة فارسية أو كان لهم عذر كهذا العذر في
هجر البحوث الفلسفية طوال العهود التي مرت بهم في الحضارة والعمران .
وإنما الرأي السليم الذي يقبله المنطق والعلم على السواء أن موانع الفلسفة
واحدة حيث كانت الأمة من مواقع الأرض وكيفما كانت السلالة من
عناصر الأجناس والأقوام . فالإغريق في موضع العرب لا يتفلسفون ،
والعرب في موضع الإغريق لا يحجمون عن الفلسفة ودراسة العلوم .
على أن يعقوب الكندي عربي أصيل لم يعرف له نسب دخيل ،
وفلاسفة الأندلس كانوا من العرب ولم يكونوا من الفرس أو من الأوربيين
أو كانت عربيتهم كالإغريقية التي ينتمى إليها سكان تراقية وجزر
الأرخبيل وكريت وصقلية وآسيا الصغرى وجالياتهم بصور وصيداً
ووادي النيل .

ولعل هؤلاء الفلاسفة الأندلسيين هم أحق الفلاسفة المسلمين بالتنويه بهم في معرض الكلام على توجه الأوربيين إلى البحوث الفلسفية والدراسات المنطقية . فإن فلاسفة الشرق كالفارابي وابن سينا وغيرهما لم يذاعوا بين الطلاب الأوربيين عامة إلا من هذا الطريق ، وكان الفضل المباشر في تعريف الأوربيين بهم لأمثال ابن باجة وابن طفيل وابن رشد وابن زهر ، وغيرهم ممن زاولوا الفلسفة والطب أو زاولوا الطب على انفراد . أما قبل ذلك فقد كان العلم بهم مقصوراً على الخاصة والمتفرغين للاستبحار في العلوم

والأوربيون قد بدأوا بالإطلاع على فلسفة ابن سينا قبل أن يسمعوها بأسماء الفلاسفة الأندلسيين ، لأن رايغوند أسقف طليطة أمر بترجمة بعض مؤلفاته إلى اللاتينية قبل منتصف القرن الثاني عشر للميلاد : ولم يكن هذا أول عهد المتفهمين من أبناء أوربة الغربية بالإطلاع على الثقافة العربية في حلقات الدرس بالجامعات الأندلسية . فمن تلاميذ هذه الثقافة قبل نهاية القرن العاشر رجل اشتهر بها وعده أبناء عصره من السحرة وأصحاب الخوارق لفرط ما أدهشهم من سعة علمه ووفرة محصوله ، وهو الكاهن جربارت الذي عُرف باسم سلفستر الثاني حين ارتقى إلى عرش البابوية سنة تسعمائة وتسع وتسعين

وجاء الفلاسفة الأندلسيون ففتحوا الباب على مصراعيه ، وكان فقهاء المسيحية يبغضون أكبرهم وأشهرهم — أبا الوليد بن رشد — لاتهمهم إياه بالنزعة المادية وانكار خلود النفوس الفردية ، لكنهم كانوا يستريحون إلى

ابن باجة وابن طفيل لأنهما يؤمنان بالأشراق والمعرفة التي تستلهم بالتأمل والرياضة . وقد ظهرت توجيهات هذين الفيلسوفين المعتدلين في آراء القديس توما الاكويني والبرت الكبير ، ولم تخف مع ذلك توجيهات ابن سينا نفسه فيما كتبه البرت الكبير عن « المعرفة » على الخصوص . بل بقيت لابن رشد أيضاً توجيهاته القوية في مدارس الفلسفة الأوربية قرونا عدة بعد تحريم كتبه واشهار هذا الحرمان في العالم المسيحي كله ، ولم يزل عزيز المسكانة على المفكرين والمتفلسفين إلى عهد النهضة الفلسفية الحديثة بعد موته بعدة قرون . ومن طريف ما يروى في ذلك أن الفيلسوف الألماني فردريك اوبرفيج Friedrich Ueberweg تصدى لتبرئته من تهمة الكفر التي رماه بها بعض المتشددين من فقهاء المسلمين . فقال إن القرآن نزل على سبعة أحرف ، وقيل على سبعين وقيل على سبعمائة . فإذا وقف العامة عند حرفه الظاهر فلن تخلو الأحرف التي يفهمها الخاصة من موافقة بينها وبين معاني الحكمة الخفية وأسرار الفلسفة العويصة !

ويظن - والظن من الأوربيين قبل الشرقيين - أن الفيلسوف الصوفي محيي الدين بن عربي كان له أثر كبير في عقول النساك والمتصوفة من فقهاء المسيحية الذين ظهروا بعده . فإنه نشأ في مدينة مرسية قبل ختام القرن الثاني عشر للميلاد وانتقل من دراسة علوم الكلام ومذاهب الفلسفة إلى الرياضة الصوفية والإيمان بوحدة الوجود ، وقد حببه إلى المسيحيين أنه وحد بين الأديان كما وحد بين حقائق الوجود ، فقال :

عقد الخلائق في الاله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه
وهو القائل :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه دان
فأصبح قلبي قابلاً كل صورة فرعى لغزلان وديراً لرهبان
وبيتاً لاوثان وكعبة طائف والواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

ويرى الأستاذ آسين بلاسيوس الأسباني Asin Palacios أن نزعات
دانتى الصوفية وأوصافه لعالم الغيب مستمدة من محي الدين بغير تصرف كثير
ومن المعلوم أن أول الفلاسفة الصوفيين من الغربيين وهو جوهان
أكهارت الألماني قد نشأ في القرن التالي لعصر ابن العربي ودرس في
جامعة باريس وهي الجامعة التي كانت تعتمد على الثقافة الأندلسية في الحكمة
والعلوم ، وأكهارت يقول كما يقول ابن العربي أن الله هو الوجود الحق
ولا موجود سواه ، وأن الحقيقة الإلهية تتجلى في جميع الأشياء ولا سيما روح
الإنسان التي مصيرها إلى الاتصال بالله من طريق الرياضة والمعرفة والتسبيح ،
وأن صلة الروح بالله الزم من صلة المادة بالصورة والأجزاء بالكل
والأعضاء بالأجسام

ومن هذه الفلسفة قبسات واضحة في مذهب « سينوزا » الذي نشأ في
هولندا وأصله من يهود البرتغال الذين أكرهوا على التدين بالمسيحية . فقد
كان كلامه عن الذات والصفات وتجلي الخالق في مخلوقاته وتلقى الخلق نور

المعرفة الصحيحة بالبصيرة والإلهام نسخة من فلسفة المتصوفة المسلمين مع قليل من التحوير

وإذا جاز أن يكون أ كهارت وسبينوزا قد استقيا بعض هذه المعتقدات والآراء من الافلوطينية الإسكندرية مباشرة — فليس مما يجوز فيه الشك أن الفيلسوف المتصوف الأسباني — رايغوند لول — قد اقتبس من ابن عربي خاصة في كتابه أسماء الله الحسنى ، لأنه كان يحسن العربية وعاش بعد ابن عربي بقرن واحد وجعل أسماء الله مئة وهي لم تعرف بهذا العدد في الديانة المسيحية قبل ذلك

وقد تراخى الزمن بين فلاسفة الدول الإسلامية والفلاسفة العصريين وقل من فلاسفة هذا العصر من اطلع على كتب فلاسفة الأندلس وفلاسفة الشرق الإسلامي كما يطلع على الفلسفة اليونانية القديمة في كتبها الأصلية ، ولكن الآراء الفلسفية التي قال بها أمثال الفارابي والكندي وابن سينا والغزالي وابن رشد وابن طفيل لا تعد غريبة كل الغرابة عن مذاهب العصر الحديث، لأنها لم تخل من آراء تكلم فيها أساطين الفلسفة الإسلامية وعرضوا لها إما بالإسهاب أو بالإيجاز

فالقائلون قديماً بالعقل الميولاني والعقل الفعال يذهبون إلى قول قريب جداً من قول كانت عن ظاهرة الأشياء Phenomen وحقيقة الأشياء في ذواتها Noumena وهي الحقائق التي يستحيل النفاذ إليها بالعقل والتفكير وإنما يدلنا عليها « العقل العملي » الذي هو مناط الأخلاق والفرائض

والتفكير ، وإنما بحقيقتنا في ذاتها ندرك تلك المجهولات من طريق
الالهام الأدبي وهو شيء قريب من الالهام المتصوفين .

ودافيد هيوم يقول إن حصول الأشياء في ترتيب معين مرة أو ألف
مرة لا يستلزم أن يكون السابق منها علة للمسبق وسبباً لوجوده ، وهذا
بتفصيله ما قد سبق إليه الغزالي حين قال في تهافت الفلاسفة أن « الاقتران
بين ما يعتقد في العادة سبباً وما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا ، بل كل شيئين
ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا ولا اثبات أحدهما متضمن لاثبات الآخر ولا
نفيه متضمن لنفي الآخر فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ولا
من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر ، مثل الرى والشرب ، والشبع
والأكل ، والاحتراق ولقاء النار ، والنور وطلوع الشمس ، والموت وحز
الرقبة ، والشفاء وشرب الدواء ، واسهال البطن واستعمال المسهل وهلم جرا
إلى كل المشاهدات من المقترنات في الطب والنجوم والصناعات والحرف ،
وإن اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه خلقتها على التساوى لا لكونه
ضرورياً في نفسه غير قابل للفوت ، بل لتقدير ، وفي المقدور خلق الشبع
دون الأكل وخلق الموت دون حز الرقبة وإدامة الحياة مع حز الرقبة ،
وهلم جرا إلى جميع المقترنات » ثم فصل القول في هذا على ثلاث مقامات
من أدق ما كتب المفكرون في حقائق التعليل .

واتخاذ المصلحة قياساً للحقيقة مذهب عرض له ابن رشد — قبل وليام
جيمز — حين تكلم في ختام « تهافت التهافت » عن الشرائع وحقيقتها

ولزومها و« أن الجميع متفقون على أن مبادئ العمل يجب أن تؤخذ تقليداً إذ كان لا سبيل إلى البرهان على وجوب العمل إلا بوجود الفضائل الحاصلة من الأعمال الخلقية والعملية . . . وأن الحكماء يرون في الشرائع هذا الرأى أعنى أن يتقلد من الأنبياء والواضعين مبادئ العمل والسنن المشروعة في ملة ملة . والمدوح عندهم من هذه المبادئ الضرورية هو ما كان منها أحث للجمهور على الأعمال الفاضلة حتى يكون الناشئون عليها أتم فضيلة من الناشئين على غيرها ، مثل كون الصلوات عندنا . فإنه لا يشك في أن الصلوات تنهى عن الفحشاء والمنكر كما قال تعالى وإن الصلاة الموضوعه في هذه الشريعة يوجد فيها هذا الفعل أتم منه في سائر الصلوات الموضوعه في سائر الشرائع ، وذلك بما شرط في عددها وأوقاتها وإذكارها وسائر ما شرط فيها من الطهارة ومن التروك أعنى ترك الأفعال والأقوال المفسدة لها . وكذلك الأمر فيما قيل في المعاد منها هو أحث على الأعمال الفاضلة مما قيل في غيرها »

وسبنوزا يقول بوحدة المادة والروح وهذه هي الفلسفة التي شرحها قبله ابن جبرول الأندلسي في كتابه ينبوع الحياة وأقام الدليل عليها بوحدة العلة والمعلول في الطبيعة أو في بعض أجزائها ، وإلا انتفى تأثير العقل في الجسد أو تأثير الروح في المادة .

ومن المشابهات غير البعيدة أن الأقدمين يقولون بتلازم الزمان والمكان وأينشتين يقول بأن الزمان هو البعد الرابع من أبعاد المكان .

ومنها ما يصح أن يسمى الطور الأول لمذهب التطور ، وقد عبر عنه

الفارابي حيث قال في آراء أهل المدينة الفاضلة مفسراً لأقوال المعلم الأول أن «ترتيب هذه الموجودات هو أن تقدم أولاً أحسنها ثم الأفضل فالأفضل إلى أن تنتهي إلى أفضلها الذي لا أفضل منه . فأحسنها المادة الأولى المشتركة والأفضل منها الاسطقسات ثم المعدنية ثم النبات ثم الحيوان غير الناطق واما بعد الحيوان الناطق أفضل منه » .

وقد توسع اللاحقون في القول بالتدرج نصاً والإشارة إلى بعض المشابهة بين القرد والإنسان فقال ابن خلدون : « أنظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدرج : آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذره ، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحارون والصدف ولم يوجد لها إلا قوة اللمس فقط . ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول أفق الذي بعده ، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدرجه التكويني إلى الإنسان صاحب الفكر والروية ترتفع إليه من عالم القردة الذي اجتمع فيه الحس والادراك ولم ينته إليه الفكر والروية بالفعل ، وكان ذلك أول أفق الإنسان من بعده . وهذا غاية شهودنا » .

والمشهور عن ديكارت أنه إمام الفلسفة الأوربية الحديثة ، وهو مسبق إلى ثلاث من أهم قضايا الفلسفة فيما كتبه الغزالي وابن سينا على الخصوص . فإن الغزالي يقول بأن الشك أول مراتب اليقين والشك هو مقدمة الفلسفة

الكارثية إلى البراهين اليقينية . وأول هذه البراهين اليقينية عند ديكارت هو قضيته التي يثبت بها الوجود فيقول : « أنا أفكر فأنا موجود » وهي بعينها قضية الإنسان المعلق بالفناء كما عبر عنه ابن سينا حين تصدى لإثبات « الأنية » أى وجود النفس بمعزل عن الموجودات الخارجية . فقال إننا لو علقنا إنساناً في الفضاء لا يتصل عضو منه بعضو ولا تقع حاسة له على موجود لشعر بأنيته ، أو شعر بذاته . وتأتى بعد ذلك مسألة الموجودات وحاجتها بعد وجودها إلى النعمة الإلهية لدوام قوة الوجود فيها فهي لا تكسب الايجاد مرة واحدة بل تكسبه على التجدد بنعمة فياصة من الله جل وعلا ، وهذا هو مذهب ابن سينا وديكارت بلا اختلاف

ويخطئ من يرى أن كل ما تركه فلاسفة المسلمين قد نقلوه قبل ذلك بحرفه عن فلاسفة اليونان . فقد وجد من الفلاسفة الإسلاميين من تصرفوا واستقل برأيه كما وجد منهم من وقف عند النقل والتفسير . وأكثرهم قد تلقوا مذاهب الأولين على أنها عمل قابل للتعديل والتفنين وليس على أنها قضية مسلمة لا يأتيتها الباطل بحال .

فالغزالي مثلاً كان على علم وثيق بأصول المنطق وكان من أقدر المفكرين السابقين واللاحقين على مناقشة البراهين اليونانية بمثلها أو بما يفوقها قوة ووضوحاً في بعض القضايا العقلية .

وابن سينا لا يرضى عن مذاهب المشائين كل الرضى فيتخذ له منطقاً

مقابلاً لمنطقهم يسميه « منطق المشركين » ويقول في مقدمته : « ... ولا نبالي من مفارقة تظهر منها لما ألفه متعلمو كتب اليونانيين ألفاً عن غفلة وقلة فهم ، ولما سمع منا في كتب ألفناها للعاميين من المتفلسفة المشغوفين بالمشائين الظانين أن الله لم يهد إلا إياهم . . . »

وقد أخذ البيروني على أرسطو في أسئلة لابن سينا أنه يعتقد بآراء الأقدمين « وأنه جعل أقاويل القرون الماضية والأحقاب السالفة في الفلك ووجودهم إياه على ما وجده عليه حجة قوية »

وقال عن أرسطو أنه يرى « أن الشكل البيضي والعدسى محتاجان في الحركة المستديرة إلى فراغ وموضع خال وأن الكرة لا تحتاج إلى ذلك وليس الأمر كما ذكر » فاستصوب ابن سينا انتقاده وذكر له أعذار المفسرين ومنها ما رواه عن تامسطيوس في تفسيره لكتاب السماء إذ يوصى بأن يحمل قول الفيلسوف على أحسن الوجوه .

وأشبه هذه المناقضات كثيرة في كتب الفلاسفة والمتصوفة وعلماء الكلام ، فليس في أقوال الفلاسفة الكبار ما يسوغ رميهم بالنقل والتقييد بالمنقول ، ولا نستثنى منهم ابن رشد — وهو أشدهم إكباراً لأرسطو — لأنه كان يتناول بعض ما ينقل عنه ببعض التهذيب .

وهنا مجال لكلمة تقال ويتلاقى فيها النقيضان على خطأ واحد . فإن الذين يثبتون أخذ الإسلاميين عن اليونان هم كالذين ينكرون ذلك إذا اعتقدوا فيه غضاضة على الآخذين . كأننا ما كان مقدار ما أخذوه .

إذ لا يطلب من أمة أن تبتدع ثقافة جديدة تنقطع عن جميع الثقافات الأولى ، ولا يعاب عليها أنها تحجج إلى المعرفة حينما وصلت إليها ، وإنما يعاب عليها أن تنطفئ شعلة الثقافة الإنسانية في يديها وأن تنقطع عندها السلسلة التي اتصلت من مبدأ التاريخ الإنساني إلى أن بلغت ، وأجل ما يذكر بالثناء للفلاسفة الإسلاميين في هذا المقام أنهم نسبوا كل مقال إلى صاحبه ولم يسكتوا عن الإشادة بفضله كما عرفوه وحققوه ، خلافاً لما جرى عليه الإغريق فيما أخذوه من علوم الحضارات الأولى ، وأن الفلسفة لم تكن في العالم الإسلامي من عمل الحكماء دون غيرهم . بل كانت عملاً مشاعاً بين كثير من المتعلمين وأشباه المتعلمين ، ومن أجل هذا دعت الحاجة إلى المناظرات في مجالس الخاصة وكتابة الرسائل في المساجلات والردود ، مما لم يسبق له نظير بين اليونان ومعاصريهم في الزمن القديم .

هذه الفلسفة — أو الفلسفة الصوفية على الخصوص — هي الطريق التي ظهر منها ما ظهر من آثار التفكير الجديد في العالم المسيحي وفي العقائد الأوروبية على الإجمال .

وربما دلت على مصدر هذه الآثار نظرة واحدة في أرقام السنين التي ازدهر فيها اللاهوت المسيحي ونجحت فيها دعوة الإصلاح الديني واشتدت فيها الحملة على الرهبانية وأعقبها ذلك الترخص المطرد في قيود النسك وقيود الزواج ، فلم يحدث شيء من ذلك كله قبل احتكاك أوربة بالحضارة

العربية تارة في الأندلس وتارة في أثناء الحروب الصليبية، ولبثت المشكلات العقلية والدينية وما يرتبط بها من المشكلات الاجتماعية — كامنة في البلاد الأوروبية لا تتسع لها فسحة للظهور والتماس العلاج والتعديل .

فلما توالى الاحتكاك بين المجتمع العربي والمجتمع الأوربي ، وتوالى معه الاحتكاك بين العقول والعقائد ، توالى كذلك ظهور الفهم الجديد والنزعة الجديدة إلى التفسير والإصلاح على نمط غير النمط الأوروبي العتيق ، وجاء الباحثون الأوروبيون بما يوافق الفلسفة العربية أحياناً ويخالفها أحياناً أخرى ، ولكن المخالفة لا تنفي مصدر التنبيه ولا تدحض الباعث على التفكير الجديد .

فالقدس توما الأكويني أكبر فلاسفة اللاهوت المسيحي في القرون الوسطى ولد في سنة ١٢٢٥ وتوفي في سنة ١٢٧٤ وألف كتبه بعد أن شاعت بين الرهبان والقسوس دروس الفلاسفة الأندلسيين وفلاسفة المشرق من المسلمين ، ولم يكن في كل ما كتب في الله والروح ووسائل الوصول إلى الحقيقة رأياً واحداً لم يتناوله قبله ابن سينا والغزالي وابن رشد على الخصوص ، وكل ما استجد من خلافاته فهو تلك الخلافات التي يقضى بها الفارق بين أصول المسيحية وأصول الإسلام ، وقد سمي المسلمون الغزالي حجة الإسلام وسمى دانتى القديس توماس قيساً من نور السماء ، لأنهما قاما بعمل واحد في مناقشة أرسطو وأفلاطون وتغليب العقيدة الإلهية على مواضع الشك من الفلسفة المادية ، ولكن المقابلة بين آراء الحكيمين خليفة

أن تبدى لنا للوهلة الأولى أيهما صاحب سبق في الزمن والاستقلال ، وعلى الرغم من ردود القديس توما شاعت مذاهب العرب بين الرهبان ولاسيا الفرنسيسكان وتحدى عشاق هذه المذاهب قرار الحرم الصريح الذى أصدره مجمع باريس اللاهوتى سنة ١٢٦٩ فى حق كل من يردد كلام ابن رشد—على الخصوص— فى النفس والإنسان الأول والقدم والحدوث. واتصلت الدراسات الفلسفية والصوفية بين رجال الكنيسة فكان من آثارها تلك الحملة القوية على نظام الرهبانية ، وتعززت هذه الحملة فى البيئات الدينية بجملة أخرى فى البيئات الأدبية قام بها أديب إيطالى يدين للثقافة العربية بمؤلفه الكبير الذى نسج فيه على منوال ألف ليلة وليلة وهو « الديكامرون » وعرض فيه الرهبة للغمز والتشهير .

فلم ينته القرن الخامس عشر حتى كانت مسألة الرهبانية قد وصلت إلى المفترق الحاسم بين مذهبين . فأصدر مجمع « ترنت (١٥٤٥) » قراره بتحريم الزواج على رجال الدين من جميع الرتب والدرجات ، وتزوج « لوثر » إمام المذهب الإنجيلى براهبة كاثوليكية قبل ذلك على سبيل التحدى والاحتجاج ، وكان لوثر من أكثر الناس اطلاعاً على فلسفة القرون الوسطى ، لأنه كان أستاذاً للفلسفة فى جامعة ويتنبرج ، ولم يكن غريباً عن مناقشات علماء اللاهوت وعلماء الكلام .

ولقد ترجم لوثر التوراة إلى اللغة الجرمانية بعد أن حجرت اللاتينية على لغة الدين والعلم مئات السنين ، ولم يحطم قيودها المرهقة إلا ذلك الإقبال

المطرد على دراسة العربية بين من كانوا قبل ذلك منقطعين لدراسة اللاتينية مترفعين على الكتابة بلغاتهم الوطنية ، وأفرط الناشئون في الإعراض عن اللاتينية حتى شكا من إفراطهم هذا بعض الجامدين ونعى على قومه ذلك التحول الخطير كما جاء في كتاب دوزى عن أسبانيا الإسلامية .



وقد أشار الأستاذ نيكولسون في كتاب « تراث الإسلام » إلى المشابهات بين أقوال الصوفية المسلمين وأقوال الصوفية الأوربيين من الأقدمين مثل اكهارت الألماني والمحدثين مثل ادوارد كارنتر الإنجليزي ، وتوسع في مقاله القيم في متابعة العلاقة بين صوفية المسيحية وصوفية الإسلام . . . وليس العجب أن تثبت هذه العلاقة التي يستلزمها المنطق والتاريخ ، ولكن العجب أن ينفى من يعلم أن العرب أقاموا في الأندلس عدة قرون وأن دروسهم حضرها رجال الدين والدنيا هناك وأن كتبهم قرأها الباحثون في الأديرة والجامعات ، وأن النهضة الأوربية لم تظهر لها علامة واحدة قبل هذا الاحتكاك بينهم وبين الأوربيين .

وللمبالغة هنا طرفان متقابلان يتساويان في الضلال عن الحق ومجافة الإنصاف ، وهما أن يقال إن الصوفية التي تلقاها الأوربيون عن العرب هي صوفية أجنبية لا فضل للعرب فيها ولا تشتمل في أطوائها على مزية من

مزايا الروح العربية ، وأن يقال من الجهة الأخرى إنها عربية محض لا مشاركة فيها للشعوب الأخرى .

فهذا وذاك باطلان على السواء .

لأن أشواق الروح الإنسانية قسط مشترك بين بنى آدم لا تنفرد به أمة من الأمم ولا تخلو منه أمة من الأمم ، ولم تستوعبها عقيدة واحدة كل الاستيعاب دون سائر العقائد الدينية .

والصوفية العربية مازجت صوفية الهند القديمة وصوفية الأفلوطينيين بالأسكندرية ، ولكنها أضافت إليها كما أخذت منها ، ولا حاجة بنا إلى تعقب التواريخ والأسانيد لتقرير هذه الحقيقة البينة ، فإن عناصر الصوفية الإسلامية مبثوثة في آيات القرآن الكريم محيطة بالأصول التي تفرعت عليها صوفية البوذية والأفلوطينية ، والمسلم يقرأ في كتابه أن « ليس كمثل شئ وهو السميع البصير » فيقرأ خلاصة العلم الذي يعلمه دارس اللاهوت في كتب القديس توما حيث يقول إن الله مبان للحوادث وأنه يعلم بالتنزيه والأبعاد عن مشابهتها أو يعلم « بما ليس هو » ولا يعلم بما هو عليه في ذاته أو صفاته ، أيا كان المصدر الأول الذي استقى منه القديس توما أصول هذه العقيدة .

ويقرأ المسلم في كتابه « ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين » فيعلم ما يعلمه تلاميذ المتصوفة البوذيين حين يؤمنون بأن ملابسة العالم تكدر سعادة الروح وأن الفرار منه أو الفرار إلى الله هو باب النجاة .

ويقراً المسلم في كتابه أن الله « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » و « كل شيء هالك إلا وجهه » فلا يزيد المتصوفة شيئاً حين يقولون له إن الله أزلى أبدى قديم بغير زمان ولا مكان ، عليم بالكليات والجزئيات .

ويقراً المسلم في كتابه أن « الله نور السموات والأرض » « والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » ... « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » فلا يزيد المتصوفة إلا التفسير حين يقولون إن الوجود الحقيقي هو وجود الله وأنه أقرب إلى الإنسان من نفسه لأنه قائم في كل مكان يصل له كل كائن « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » والله يخلق ويأمر فهو فعال مرید وليست إرادته مانعة من الخلق كما يرى الفلاسفة إذ يقولون إن الإرادة القديمة لا ينشأ منها اختيار حديث أو مخلوق جادث « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

ومما يعلمه المسلم من كتابه أن عقل الإنسان لا يدرك من الله إلا ما يلهمه إياه لأنه تعالى : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » .

ومنه يعلم الخلاف ما بين عالم الظاهر وعالم الباطن أو عالم الحقيقة وعالم الشريعة لأنه يقرأ مثلاً واضحاً لهذا الخلاف فيما كان بين الخضر وموسى عليهما السلام من خلاف . « . . . فوجدا عبداً من عبادنا آتينا رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنا علماً . قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت

رشداً . قال إنك لن تستطيع معي صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به
خبراً ، قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً . قال فإن اتبعتني
فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً . فانطلقا حتى إذا ركبا
في السفينة خرقها قال أخرجتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرأ . قال ؛
ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا . قال لا تؤاخذني بما نسيت
ولا ترهقني من أمري عسراً . فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت
نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً . قال ألم أقل لك إنك
لن تستطيع معي صبرا . قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني
قد بلغت من لدنّي عذراً . فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها
 فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت
لاتخذت عليه أجراً . قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم
تستطع عليه صبرا . أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت
أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً . وأما الغلام فكان
أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً . فأردنا أن يبدلها ربهما
خيراً منه زكاةً وأقرب رحماً . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة
وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يباغيا أشدهما
ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري . ذلك تأويل
ما لم تسطع عليه صبرا .

وهذه آيات بينات يقرأها جميع المسالمين في كتابهم الذي لا يختص به

فريق منهم دون فريق ، وبينهم ولا شك أناس مطبوعون على التصوف واستخراج الأسرار الخفية والمعاني الروحانية من طوايا الكلمات . فإذا عمد هؤلاء إلى تفسير تلك الآيات وما في معانيها فليس أيسر عليهم من الوصول إلى لباب التصوف الذي شغلت به خواطر الحكماء في جميع الأجيال وبين جميع الأجناس ، وعندهم من هذا القسط وحده ما يجعلهم أصلاء في الفلسفة الربانية ويجعل لهم فيها شيئاً ينقلونه إلى الأمم ، غير ما استعاروه من حكماء الهند أو حكماء الاسكندرية .

أحوال الحضارة

بعض الكلمات أدل من طوال المجلدات .

ومن هذا القبيل تلك الكلمات التي تنتقل من لغة قوم إلى لغة قوم آخرين فتدل على ما انتقل معها من أحوال المعيشة وألوان الحضارة ، وتبسط لنا في قليل من المفردات ذلك الفارق البعيد في شؤون الأمة بين ما كانت عليه قبل اقتباس تلك الكلمات المعدودات و بعد اقتباسها وتداولها في أحاديثها اليومية .

وفي لغات الأوربيين كلمات لها مثل هذه الدلالة على أثر المعيشة العربية في المعيشة الأوربية ، بالمعاشرة أو الاتباع في الحكم أو تبادل التجارة منها الكلمات الدالة على القطن (Cotton) أو على الحرير الموصلى Mualin أو الحرير الغزى gauze أو الحرير الدمشقى Damas أو الجلد القرطبي Cordevan أو الجلد المراكشى morocco أو الجبة jupe أو المسك musk أو العطر attard أو الزعفران saffron أو الشراب Syrup أو الجرة jar أو الصفة بمعنى القعد الطويل sofa أو الأرز rice أو البرتقال من النارج Orange أو الليمون Lemon أو السكر Sugar أو القهوة coffee أو القنوة Condy إلى أشباه هذه المفردات .

وقد شاعت هذه المفردات في الانجليزية والفرنسية وبعض اللغات

الأوربية الأخرى . أما الذى دخل الاسبانية والبرتغالية من الكلمات الدالة على أحوال المعيشة فقد يحصى بالمئات ولا يقتصر على العشرات ، ومنها القباء gaban والبناء albanil والحزن almacen والقطران alquitran والسطیحة azotea والطحينة fonda والبطيخ al Tariha والخبز tahone والحجر الكريم أو الجوهر alhaja والبراءة albaran والكراء alquiler والقبعة alcoba والساقية assaquiya وبعض المكابيل كالفنيقة وهي الغرارة fanega والثماني eelemines والقطيفة alcatifa والرابعة arroba والجيب algibeira والحياطة afaiate والرطل arratel وألفاظ كثيرة من أسماء الحاجيات المتداولة أو الأعلام على المواقع والبلاد .

وليس كل الشأن فى انتقال هذه المفردات إلى الإسبانية أو البرتغالية أنها صفحات زیدت على معجم اللغتين ، وإنما الشأن الصحيح فيها أنها دليل على صبغة المعيشة العربية التى اصطبغت بها تلك البلاد وكل بلد غيرها اقتبس مثل هذا الاقتباس أو بعض هذا الاقتباس ، وأنها مقياس الفارق بين أحوال الأمم الأوربية قبل اتصالها بالحضارة العربية وبعد شيوع هذا الاتصال .

ولم تكن الجزيرة الأندلسية هى الحجاز الوحيد بين القارة الأوربية والحضارة العربية ، لأن القوافل التى تنقل البضائع من آسيا الغربية إلى أوربة الشرقية لم تنقطع كل الانقطاع فى عصر من العصور ، ولأن الأوربيين قد عرفوا الشئ الكثير عن الشرق فى إبان الحروب الصليبية .

ولكن الجزيرة الأندلسية هي القطر الوحيد الذي يقال فيه على التحقيق إنه لم يعرف له عصرًا ذهبيًا في تاريخه كله غير العصر الذهبي الذي رآه في أيام الدولة العربية الزاهرة ، ولا استثناء في ذلك لعهد فيليب الثاني وما كان فيه من مظاهر الأبهة والرخاء ، لأنه كان رخاء مستعاراً من الخيرات التي تدفقت على إسبانيا من مستعمراتها الأمريكية بعد كشف العالم الجديد ، ولم يكن رخاء محمولاً على حضارة تزدهر فيها المعارف الإنسانية وتتفوق فيها عقول الأمة عن فتح مبتكر ينسب إلى أهل البلاد

ففي عصر الأندلس الذهبي كانت المدن الأندلسية أعمر المدن في القارة الأوربية من أقصاها إلى أقصاها ، وكان في قرطبة وحدها دكان نسخ واحد يستخدم مائة وسبعين جارية في نقل المؤلفات لطلاب الكتب النادرة ، وكان في قصر الخليفة أربعائة ألف كتاب ، وكان سادات أوربة يفاخرون بما يفتنونه من منسوجاتها أو مصوغاتها المعدنية أو آنية الفخار التي لا يعرف لها نظير في بلد آخر ، وكان عدد سكانها نحو ألف يسكنون نحو مائتين وخمسين ألف بيت ، ولم تكن مدينة في أوربة تأوى إليها أكثر من ثلاثين ألفاً أو خمسين ألفاً على أكبر تقدير

وإلى قرطبة وزميلاتها غرناطة وأشبيلية وطليطلة ومرسية ومالقة كانت تتجه وفود العواهل الأوربيين في طلب الأدوية أو التحف أو أدوات الترف والزينة وفرق الموسيقى والغناء ، وأجمل بعض هذا المؤرخ الانجليزي استانلي لاين بول فقال : « إن حكم عبد الرحمن الثالث الذي قارب خمسين سنة

أدخل على أحوال أسبانيا تجديداً لا يلم الخيال - على أجمع ما يكون -
بحقيقة فحواه . . .

ولا نعرف شهادة لهذا العصر الذهبي أعظم ولا أصدق من ذلك الحنين
الذي يذكره به غلاة الوطنيين الأسبان وكبار كتابهم حين يلتفتون إلى ماضي
بلادهم ويتمنون لها حاضراً كماضيها في أيام الدولة العربية ، فلم تنجب أسبانيا
في عصرها الحديث وطنياً غيوراً ولا كاتباً مبرزاً أشهر من بلاسكوا ابانيز
الذي توفي منذ بضع سنوات ، ولكنك لا تقرأ لعربي ولا شرقي كلاماً في
الإشادة الحماسية بمجد العرب الأندلسيين كالذي تقرأه لهذا الكاتب النابه
في أهم مصنفاته وهي « ظلال الكنيسة » حيث يقول : « ... لقد أحسنت
أسبانيا استقبال أولئك الرجال الذين قدموا إليها من القارة الأفريقية ،
وأسلمتهم القرى أزمتها بغير مقاومة ولا عداء . فما هو إلا أن تقترب كوكبة من
فرسان العرب من إحدى القرى حتى تفتح لها الأبواب وتتلقاها بالترحاب ...
وكانت غزوة تمدين ولم تكن غزوة فتح وتدويخ . ولم يزل ميل المهاجرين
يتدفق من جانب المضيق وتستقر معه تلك الثقافة الغنية الموطدة الأركان ،
نابضة بالحياة ، بعيدة الشوط ، ولدت منتصرة و بث فيها النبي حمية قدسية
واجتمع إليها أفضل ما في وحى بنى إسرائيل وعلم بيزنطية وتراث الهند
وذخائر فارس والصين . وهكذا تسرب الشرق إلى أوربة على نهج غير
نهج دارا و زر كسيس من قبل أثينا التي قاومته خوفاً على حريتها . وإنما
اختار له في هذه المرة نهجاً مقابلاً لأثينا من الناحية الغربية وهو الجزيرة

الأندلسية حيث سلطان الملوك « اللاهوتيين » والقساوسة المجاهدين . فتلقته مفتوحة الذراعين .

« وفي خلال سنتين اثنتين استولى الغزاة على ملك قضى مستردوه سبعة قرون كاملة في استرداده ، ولم يكن في الواقع فتحاً فرض على الناس برهبة السلاح بل حضارة جديدة بسطت شعابها على جميع مرافق الحياة ، ولم يتخل أبناء تلك الحضارة زمناً عن فضيلة حرية الضمير وهي الدعامة التي تقوم عليها كل عظمة حقبة للشعوب . فقبلوا في المدن التي ملكوها كنائس النصراني وبيع اليهود . ولم يخش المسجد معابد الأديان التي سبقته فعرف لها حقها واستقر إلى جانبها غير حاسد لها ولا راغب في السيادة عليها ، ونمت على هذا ما بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر أجمل الحضارات وأغناها في القرون الوسطى ، وفي الزمن الذي كانت فيه أم الشمال فريسة للفتن الدينية والمعارك الهمجية يعيشون عيشة القبائل المستوحشة في بلادهم المتخلفة كان سكان أسبانيا يزدادون فيزيدون على ثلاثين مليوناً تنسجم بينهم جميع العناصر البشرية والعقائد الدينية ، وخفق قالب الحياة الاجتماعية بأقوى نبضاته التي عرفها تاريخ الجماعات البشرية ، فلا نرى لها قريناً نقابله به غير ما نجده في الولايات المتحدة الأمريكية من تنوع الأجناس واتصال الحركة والنشاط . فعاشت في الجزيرة الأندلسية طوائف من النصراني والمسلمين وأهل الجزيرة والشام وأهل مصر والمغرب ويهود أسبانيا والشرق فكان منهم ذلك المزيج الذي تميز منه المستعربون والمدجنون والمولدون ،

وعاشت بفضل هذا التفاعل الحى بين العناصر والعروق جميع الآراء والعادات والكشوف العلمية والمعارف والفنون والصناعات والمخترعات الحديثة والأنظمة القديمة ، وانبثقت من تجاوب هذه القوى مواهب الإبداع والتجديد ، ووصل من الشرق الحرير والقطن والقهوة والورق والليمون والبرتقال والرمال والسكر مع هؤلاء الوافدين ، كما وصلت السجاجيد والمنسوجات والبارود والمعادن المنقوشة ، وأخذنا عنهم الحساب العشرى والجبر والكيمياء والطب وعلم الفلك والشعر المقفى . ونجا الفلاسفة الإغريق من الضياع فى غمرة النسيان حيث تبعوا العربى فى فتوحه وغزواته . فترجع أرسطو فى جامعة قرطبة التى ذاعت شهرتها فى الآفاق ، وظهرت بين العرب الأندلسيين فكرة الفروسية التى تبناها فيما بعد رجال الشمال كأنها ميزة مقصورة على الأمم المسيحية .

« وبينما كانت شعوب الفرنجة والسكسون والجرمان يعيشون فى الأكواخ ، ويعتلى ملوكهم وأشرفهم قمم الصخور فى القلاع المظلمة ، ومن حولهم رجال هم عائلة عليهم يلبسون الزرد ويأكلون طعام الإنسان الأول قبل التاريخ — كان العرب الأندلسيون يشيدون قصورهم القوراء ويرودون الحمامات كما كان سراة رومة يرودونها من قبل للمساجلة فى مسائل العلم والأدب وتناشد الأشعار وتناقل الأخبار .

«وكما آنس راهب من نفسه رغبة فى العلم اختلف إلى الجامعات العربية أو للجامع الإسرائيلية فى أسبانيا ، ووقر فى أخلاذ الملوك والأمراء أنهم

مبرأون من أمراضهم لا محالة إذا أسعدهم الحظ بطبيب أسباني مهما يكلفهم ذلك .

« ثم انفصل العنصر الوطني عن الغزاة وتجمعت القوميات المسيحية الصغيرة فاشتبك العرب والأسبان في حروب سجال لا تنتهى إلى الإبادة والاستئصال بعد الانتصار ، وأضمر كل منهم لصاحبه احتراماً عميقاً فهو يعاهده على فترة طويلة من فترات السلم كأنما يحاولون بذلك تأجيل تلك اللحظة التي يحم فيها الفراق الأخير ، ويعاونه خلال ذلك في بعض الأعمال التي تفتقر إلى اشتراك الجهود .

« ولقد عمدت الحرية في ذلك العهد أقاليم أسبانيا المسيحية نفسها قبل أوربة الشمالية بزمن طويل ، واستقلت بتنظيم أمورها المالية ، وجعلت الملك أو الأمير بمقام رتبته العسكرية ، وأصبحت المقاطعات كالجهوريات الصغيرة التي يتولاها حكامها المنتخبون . وكان المتطوعون في المدن قدوة مثلى للجيوش الديمقراطية ، وكانت الكنيسة المسيحية وهى على اتصال بالشعب تعيش بسلام في جوار الأديان المختلفة ، ونجمت في الأمة طبقة وسطى فعالة فأبدعت الصناعات المتعددة وأنشأت على السواحل أعظم قوة بحرية في زمانها ، وراجت المنتجات الإسبانية في جميع المرافئ الأوربية ، وقامت في البلاد مدن تضارع في تعداد سكانها الحواضر الحديثة ، واختصت بعض القرى بمعامل النسيج ، وزرعت الأرض في شبه الجزيرة بأسرها .

« وقد ارتقى العرش ملوك الكتلركة في الوقت الذى بلغت فيه القوى

الوطنية أوجها ، وإنما يرجع طول ملكهم إلى موارد القرون الوسطى
الفياضة بالابداع المخزونة في ودائع العصور السابقة .

« إلا أنه كان ملكا مشؤوماً بغيض العواقب . لأنه حاد بالسياسة
الأسبانية عن سواء السبيل فدفوع باسبانيا إلى التعصب المقوت ونفخ فينا
نزعة التوسع في الاستعمار .

« كانت أسبانيا يومئذ تتبوأ المكانة التي تتبوأها إنجلترا في عهدنا الحاضر،
ولو أنها اتبعت سياسة التسامح الديني والتعاون بين الشعوب وواصلت عمل
العرب الصناعى والزراعى بدلا من مغامرات الحرب ومطامع الاستعمار
لكان لنا اليوم غير شأننا الذى وصلنا إليه .

« وإن الطابع الإسباني لأبرز في عصر النهضة الأوربية من الطابع
الإيطالى الذى اتسمت به إيطاليا بما انبعث فيها من آداب الأمم القديمة
وفنون الإغريق ، فإن النهضة لم تقتصر على الميادين الأدبية والفنية ، بل
أخرجت إلى العالم حضارة جديدة بتقاليدها وصناعاتها وجيوشها وعلومها .
وهذا كله من ثمرات أسبانيا العربية والإسرائيلية والمسيحية .

« فالقائد العالم القرطبي الكبير (جون سالفو) رسم خطط الحرب
الحديثة ، وتفوق (بدرونوفارو) فى الهندسة واستخدمت الجيوش الإسبانية
الأسلحة النارية لأول مرة فى التاريخ فكان استخدامها هو الذى خلق فرق
المشاة وجعل من الحرب قوة ديمقراطية لأنه قدم الشعب على جماعة الفرسان
الذين كانوا سجناء تلك الشبكة العسكرية الارستقراطية .

إلى أن يقول :

« أسرعت دوننا ايزابيلا بذلك التعصب النسائي الذي امتلأت به فأنشأت محاكم التفتيش ، وانظفاً من ثم مصباح العلم في المسجد والبيعة وخلفته في الدير المسيحي ذبالة العبادة . لأن الساعة ساعة صلاة . وقد ولت ساعة العلم وانزوت الفكرة الإسبانية في غياهب الظلمات حيث ترتعد برداً في عزلتها المضنية وتخبو شيئاً فشيئاً إلى أن تموت . وإن بقيت منها بقية فهي تلك التي تنصرف إلى الشعر والمسرح والجدل الديني ، مذ كان العلم يفضى بصاحبه إلى نار الحريق . . . »

هذه الشهادة الإسبانية الصحيحة — شهادة أبانيز — للدولة العربية في الجزيرة الأندلسية هي خلاصة التاريخ المتفق عليه ، وليست تحية إعجاب وكفى من رجل منصف متوثب الخيال .

ولم يمار في هذه الخلاصة التاريخية أحد من المؤرخين المعول عليهم سواء كانوا من العرب أو الأوربيين أو الأسبان ، إلا أفراداً قلائل زعموا أن الحضارة العربية في الأندلس قامت على أيدي أبنائها الأصلاء دون الغرباء الوافدين عليها ، وهو زعم عجيب يوحى أول ما يوحى إلى الذهن أن يسأل : ولم لا تزدهر العبقريّة الإسبانية إلا في ظل الحكومة العربية فلا تؤتى ثمراتها قبل وفود العرب ولا بعد ذهابهم وذهاب آثارهم في العلم والصناعة وال عمران ؟

وجواب هذا السؤال ينفي كل زعم يلهج به أمثال أولئك المنكرين

المتعصبين ، وبخاصة حين يرسلون زعمهم إرسالاً لا يؤيده اسم واحد من أسماء أبناء البلاد الأصلاء الذين ساهموا مع العرب في أعمال الحكم والتموير ، أو كانت مساهمتهم دليلاً على مشاركة عامة متسعة النطاق .

وأول ما يستخلص من قيام الحضارة الأندلسية على هذا الوصف المتفق عليه أن آثارها في أوربا كانت أعم وأعمق مما تسجله الكتب المطولة أو الكلمات المقتبسة ، لأننا نرى بأعيننا في عصرنا الحاضر كيف يكون أثر القدوة بالسمع فضلاً عن القدوة بالمعايشة الطويلة بين الشعوب ، وهذه الثورة الفرنسية قد تخللت أوربا وآسيا وأفريقية بمبادئها وحوافزها ولما يتجاوز المطلعون على حقيقتها آحاداً معدودين في كل بلد من بلدان تلك القارات ، فإذا كانت القارة الأوربية لا تغير نظرتها إلى الحياة بعدمعايشة تلك الحضارة الأندلسية على استفاضتها وطول أمدها فالتهمة هنا تتجه إلى العنصر الأوربي ولا تتجه إلى العنصر العربي أو الإسلامي بحال .

وقد أصاب أبا نيز حين قال إن عصر النهضة مدين للحضارة الأندلسية قبل الحضارة الإيطالية التي أعقبها . لأن عصر النهضة لم يكن عصر تجديد للفنون الإغريقية القديمة ولا مزيد على ذلك من عنده ، ولكنه كان عصر تجديد في الحياة العملية والمرافق الصناعية والتجارية وفهم مستحدث العقيدة والعالم والعلاقات بين الحاكمين والمحكومين ، أو كان عصر معيشة جديدة تناولت بالتبديل والتعديل طبقات الشعوب من العلية إلى السواد ، وأولى

أن يأتي ذلك من القدوة الشعبية في جميع الشئون العملية بعد اتصال المعاشرة بين حضارة العرب وأبناء أوربة الغربية عدة قرون .

وفي وسع الأرقام والألفاظ أن تحصى لنا آثار العرب في بعض العلوم أو بعض الصناعات ، ولكن آثار العرب في الحضارة العامة لا تستقصيها الأرقام ولا الألفاظ ولا هي موقوفة على استقصاء أرقام وألفاظ . لأن زعم الزاعم أنها قد مضت بغير أثر كبير يناقض العقل البشري كما يناقض المشاهد والمحسوس ، وإسناد هذا الأثر إلى غيرها بلا مشاركة منها على الأقل تعسف لا يؤخذ به في سياق التاريخ .

وقد جاءت النهضة بعد عهد الحضارة الأندلسية ، وجاء الإصلاح الديني بعد النهضة ، وجاءت الحرية السياسية بعد الإصلاح ، ولم ينكر أحد من الأوربيين أثر واحدة من هذه الحركات في الأخرى . فليس في وسع المنكرين المتعصبين منهم أن يقطعوا الصلة بين الحركة الأولى وما تلاها ، مع هذا التلازم في الزمان والأسباب .

الدولة والنظام

من المفارقات في ظاهر الأمر أن يقال إن الحضارة الإسلامية كان لها أثر في فصل الدولة عن الكنيسة ، وفيما تلا ذلك من حركات التحرير أو دعوات التغيير في معنى الدولة والملك وعلاقة الرعايا والملوك .

وإنما يبدو هذا القول كأنه من قبيل المفارقات لأن المعلوم السائع عن الإسلام أنه وحدّ الملك والخلافة الدينية وجمع بينهما في كثير من الدول الإسلامية شرقها وغربها وقديمها وحديثها ، فكان لقب أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين من ألقاب الملوك المسلمين إلى زمن غير بعيد ، ولا يزال من هؤلاء الملوك من يتسمى به في مملكته إلى الآن .

لكن الواقع كما أسلفنا أن المفارقة في الظاهر لا في الحقيقة ، لأن حركة التحرير في هذا الاتجاه بين الأوربيين إنما أنت على خطوات متلاحقات منذ القرن الحادى عشر للميلاد إلى عصر الثورة الفرنسية . وكانت الخطوة الأولى في هذا الاتجاه هي ثورة الملوك على سلطان الكنيسة ونزوع بعضهم كالحصل في إنجلترا إلى الجمع بين الرياسة الدنيوية والرياسة الدينية ، وكان استقلال الملك المسلم عن سلطان رجال الدين في الشرق والغرب من أقوى الحوافز التي جالت في خواطر الملوك الأوربيين زمناً بعد مقاربتهم للدول

الإسلامية في الأندلس تارة وفي البلاد التي تناولتها الحروب الصليبية تارة أخرى ، فزنعوا بدافع من الغيرة والقدوة الماثلة أمام أعينهم إلى محاكاة أئدادهم وأقرانهم والتمرد على ذلك السلطان الشامل الذي فرضته الكنيسة عليهم وعلى رعاياهم .

فقد كان للأحبار الرومانيين حق الحرمان والغفران يسلطونه تارة على الملوك والأمراء وتارة على آحاد الناس ، وربما أعلنوا حرمان الملك وأحلوا رعاياه من الطاعة له فتذرع الأتباع الناقمون عليه بهذا الإعلان لنقض طاعته وتمزيق ملكه ، وربما ألغى الملوك أنفسهم مضطرين في كثير من الأحيان إلى تمليق الأحبار في رومة والسعى إليهم لاستغفارهم وطلب المعونة منهم على أتباعهم ومنافسيهم . ونظروا بأعينهم إلى ملوك مثلهم في أوربة نفسها وفي البلاد الشرقية التي عرفوها فوجدوهم أحراراً من هذه الرقبة آمنين على عروشهم من ذلك السيف المصلت على الرقاب ، فلا جرم تحيك في صدورهم نازعة من الغيرة وطلب المحاكاة ويغتنمون الفرصة الأولى لإدراك ماتمنوه وفكروا فيه .

ومهما يكن من تعدد الأسباب التي تقدمت ثورة الملوك على الكنيسة ، فمن أسبابها التي تذكر ولا تنسى هذه القدوة الملكية الماثلة في الأندلس ومصر وبلاد الشرق الأدنى . ولم يتفق عبثاً على ما نرى أن تبدأ الثورة في ألمانيا وإنجلترا وهي البلاد التي كان لها ملوك وأمراء أقاموا بالشرق في خلال الحروب الصليبية ، فان هؤلاء الملوك جربوا إنشاء الدول بأسمائهم في

البلاد الشرقية بعد أن غلب على الظن أن هذه الدول ستقام باسم السلطة البابوية والحرب حرب صليبية والمرجع فيها إلى رجال الدين وأحبار الكنيسة . . . فلما استقامت لهم التجربة ومثلت أمامهم القدوة وأتيحت لهم أو لخلفائهم الفرصة المواتية خرجوا على سلطان الكنيسة فكانت هذه هي الخطوة الأولى في سبيل الفصل بين الدين والدولة ، أو في سبيل عزل الكنيسة عن تدبير الشؤون السياسية في البلاد الأجنبية عنها .

وقد كانت هذه الثورة الملكية ضرورية قبل الثورة الشعبية التي تلتها ، وكانت حرية الشعوب مع ملوكهم على قدر حرية الملوك مع رجال الكنيسة ولولا أن ثورة الملوك كانت لازمة قبل ثورة الشعوب لاستفاد الأوروبيون من مقاربة الدول الإسلامية معنى آخر أجل وأسمى من هذا المعنى في فهم حقيقة الدولة وحقيقة الرعاية أو العلاقة بين الراعى والرعية ، لأن أوربة ظلت إلى القرن السابع عشر تعتبر الدولة سيادة للحاكمين على المحكومين ، وظل علماءها ينكرون حق الشعب في الإشراف على الحكومة ويعتبرون أن هذا الحق طريق إلى الفوضى والفساد كما قرر جروسوس في كلامه عن حقوق الحرب والسلام .

وقبل جروسوس — إمام القانون الدولي عندهم في زمانه — كان المعري يقول في أوائل القرن الحادى عشر للميلاد ، أى قبل جروسوس بستة قرون :

ظاموا الرعية وامتبأحوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وقبل المعرى باربعة قرون كان القرآن يعلم الناس أن أمر الرعية شورى
بينها ، وكان عليه السلام يعلمهم أنه لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق وكان
الفاروق يعلمهم أنهم ولدوا أحراراً لا يستعبدهم خليفة ولا أمير .
على أن الأوربيين إذا كان قد فاتهم أن يتلقوا عن الدول الإسلامية
هذا الدرس الرفيع في معنى الدولة والعلاقة بين الحاكمين والمحكومين فيها ،
فإنهم قد عرفوا من تلك الدول الإسلامية شيئاً جديداً في العلاقات الدولية
ومعاهدات السلم والصلح والمشاركة بين الأعداء والمختلفين بالمعاهد والعناصر
واللغات ، فإن الاسلام قد أباح لأتباعه معاهدة المشركين والذميين وأهل
الكتاب كما أباح لهم معاهدة إخوانهم في الدين ، وقد كانت نشأة الدول
الإسلامية على الأرض الأوربية مناسبة حية لتطبيق هذه المعاملات مع
المحاربين والمسلمين ومع الحكومات وآحاد الناس ، وكان الأمير المسلم لا ينقض
عهد أمانة لمن آمنهم على أنفسهم وأموالهم ولو كانوا من أعدى أعدائه ،
فكان الفرسان المسيحيون يترددون على العواصم الأندلسية لينازلوا أبطال
المسلمين ذوى الصيت الذائع في حلبات الفروسية والرياضة البدنية ، فلا
يُعتمد عليهم غالبين ولا مغلوبين ، وكانت الحكومات المسيحية التي ترتبط
بعهود المسالمة أو المشاركة مع المسلمين على ثقة من الوفاء بهذه العهود في أخرج
الأوقات وأحفلها بالخاوف والأخطار . وشاهد الصليبيون في المشرق مثلاً
آخر من أمثلة هذه القداسة المرعية للمعاهدات الدولية وهذه السنة الجديدة
في معاملات الحكومات والشعوب ، فتغنى الرواثيون والشعراء الانجليز

بصدق صلاح الدين وشممه وأرى محبته في معاملاته لخصومه ، وسجلوا له بالثناء والإعجاب صدقه الذى لازمه فى كل وعد من وعوده ، فلم ينقض كلمة قط ولم يحنث مرة بيمين .

وأعجب من هذا فى باب التفرقة بين حدود الخصومة وحدود المعاملة أن قيام الحرب بين العرب والصليبيين لم يكن ليقطع أسباب التعامل بين المتقاتلين فى غير ما تستدعيه ضرورات القتال ، ومن ذلك ما رواه الرحالة ابن جبير حيث قال : « ومن أعجب ما يحدث به أن الفتنة تشتعل بين الفئتين مساميين ونصارى وربما يلتقى الجمعان منهم ويقع التصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . شاهدنا فى هذا الوقت الذى هو شهر جمادى الأولى من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عساكر المساميين لمنازلة حصن الكرك ، وهو من أعظم حصون النصارى وهو المعترض فى طريق الحجاز ، والمانع لسبيل المساميين على البر : بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشق قليلا وهو سرارة أرض فلسطين ، وله منظر عظيم الاتساع متصل العمارة يذكر أنه ينتهى إلى أربعمائة قرية ، فنازله هذا السلطان وضيق عليه وطال حصاره ، واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك . وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها فى بلادهم وهى من الأمانة على غاية . وتجار النصارى أيضاً يؤدون فى بلاد المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم

على الاعتدال في جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية والدنيا لمن غلب . هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك ولا تعترض الرعايا ولا التجار . فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلباً أو حرباً . وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنه . . . » .



وقد كان لفهم الدولة على معناه الصحيح أثره النافع في العلاقات السلمية والحربية بين الحكومات ، فلم يحدث قط في العالم العربي أن دولة حاربت أخرى للمطالبة بحصة أميرة في العرش أو للخلاف على ميراث الأصهار وتركات البيوت الملكية . لأن الحضارة العربية رفعت معنى الدولة من مرتبة الحطام الذي يورث أو ينتقل بالنسب والمصاهرة إلى المرتبة الإنسانية التي ارتقت إليها الحضارة الحديثه بعد ذلك ببعضه قرون : وهي قيام الدولة على علاقة حرة بين الراعى المسئول والرعايا الطلقاء من أسر العبودية والاسترقاق فلا جرم يقال بحق إن الحضارة العربية سبقت أوربة زمنناً طويلاً في مجال التربية الدولية وسلكت المنهج الوحيد الذى يؤدى إلى انتظام المعاملات العالمية على الوجهة القديمة التى يممها دعاة الإصلاح فى عهد عصبة الأمم المتحدة ، وما يشبهها من الجامعات .

اثر أوردت الحديث
في النهضة العربية

سداد الديون

مضى زمن كانت أوربة فيه — كما رأينا في بعض فصول هذا الكتاب — تتلقى الحضارة العربية وهي نافرة متبرمة ، أو حائرة مستسلمة ، إذ كان شيوخها وأصحاب زمامها ينعون الزمان ويسخطون على الدنيا ومن فيها ، لأن وجوه الناشئين قد تحولت عن القبلة التي كانوا يأتون بها ، وعقول المتعلمين قد انصرفت عن المطالب التي كانوا يكفون عليها . فأصبحوا ولا هم لهم إلا الإقبال على كل ما هو عربي غريب ، والإعراض عن كل ما هو أوربي أصيل .

ثم دارت الأفلاك دوراتها التي تدورها وكأنما هي مستقرة في مكانها فإذا بصيحة كهذه الصيحة تسمع من جانب الشرق العربي كأنها منقولة من أفواه أولئك الأوربيين الذين رددوها قبل ألف سنة ، لأن أبناء الشرق أصبحوا ولا هم لهم إلا الإقبال على كل ما هو أوربي غريب ، والإعراض عن كل ما هو شرقي ، أو عربي ، أصيل !

ذلك سداد الديون

وكثيراً ما يكون سداد الديون غير مقصود وغير مشكور ، ولا سيما ديون الحضارات الإنسانية التي تتوارثها الأمم دواليك . بين الأخذ والإعطاء

وتعلم الشرق الحديث من أوربة كما تعلمت أوربة من الشرق القديم
ولا ضير في التعليم ، لولا أنه كان تعليم قصور .

فان الولع بكل جديد كالولع بكل قديم ، دليل على نقص في التمييز وعلى
اتباع يخلو من الابتداع .

وقد عشنا زمناً في الشرق ومقياس الحرية عندنا أن نقبل على كل جديد
لأنه جديد ، وأن شور على كل قديم لأنه قديم .

فكان ذلك عهد تعليم ، وكان كذلك عصر قصور .

ثم بلغ هذا العصر مداه فبرزت في صفوف الشرقيين طائفة تملك حريتها
في وجه الجديد كما تملكها في وجه القديم ؛ فلا يفقد الإنسان صفة الحرية
لأنه يفضل بعض القديم على بعض الجديد ، ولا يكسب الإنسان صفة
الحرية لأنه يفضل كل جديد على كل قديم . بل يكون مقياس الحرية هو
مقياس التمييز لكل ممتاز ، والاختيار لكل ما يستحق أن يختار .

نقلة من عصر القصور إلى عصر الرشد والاستقلال .

تعلمنا مكرهين متبعين ، ثم نتعلم مختارين مبتدعين .

ولم يقتصر ما تعلمناه من قبل أو ما نتعلمه اليوم — على باب دون باب
أو فريق دون فريق ، بل شمل المدرسة والبيت والسوق ، وعم الجامدين
والمتوسطين والمتطرفين ، ولا يزال علينا أن نتعلم الكثير في كل باب ، وأن
نترقب التقدم من كل فريق ، ولكن على سنة الرشد لا على سنة القصور .
وسيبلى هذا العصر مداه بعد حين ، وستدور الأفلاك دوراتها التي

يتشابه فيها المدار بالقرار، فغير بعيد أن تسمع الصيحة مرة أخرى في جانب من جوانب الكرة الأرضية . . وغير بعيد أن يملها الشرق في هذه المرة على نحو جديد . . فقد يتسع لها عالم الروح ، إن لم يتسع لها عالم الفكر والعلم أو عالم الحكم والسلطان .

الاجتماع والسياسة

شاع التعليم الحديث في الشرق كما شاعت فيه القدوة المعيشية بكثير من مظاهر الحضارة الأوروبية ، وكان لشيوعهما معاً فعلٌ سريع في بعض آداب الاجتماع ومقوماته، تقابلت فيه المحاسن والمساوىء، على حكم العادة المألوفة في كل تغير سريع. ولما يقع التغير في العرف الاجتماعي دون أن تبدو آثاره ومصاحباته في الأسرة وفي العادات العامة ، وفي العلاقة بين الطبقات .

وقد كانت لذلك التغير السريع آثاره في هذه المناحي الثلاثة ولا سيما الأسرة . فان التعليم وتحرير المرأة وتطور لوازم المعيشة قد اتحدت كلها على تقليل الرغبة في تعدد الزوجات . لأن الرجل المتعلم يطلب الزوجة للمشاركة في الفهم والشعور ويضن بينته وأخته في الوقت نفسه أن تتعرضا لمتاعب الضرر والمنازعة بينها وبين الزوجات الأخريات ، والمرأة المتحررة تنشذ الزوج الذي يشاطرها الحب والمودة ويعاملها معاملة الشريكة في حياته البيتية وحياته النفسية ، وتكاليف المعيشة وتعليم الأبناء عبء لا يقوى عليه الزوج الذي يضطلع بهذه التكاليف في أكثر من أسرة واحدة .

وأصبح اقتناء الجوارى محرماً بحكم القانون بعد اتفاق الدول على تحريم الرق فبطلت الذرائع إلى تعديد الزوجات بالتسرى والاسترقاق، وكان ضرباً من الوجاهة ترضاه بعض الأسر الغنية على هذا الاعتبار .

وشوهدت في الأسر المصرية عناية بالحفلات البيتية لمناسبات لم تكن شائعةً بين الشرقيين قبل الحضارة الأوربية، وهي ذكريات الزواج وذكريات ميلاد الآباء والأمهات والأبناء ، وغيرها من المناسبات العامة التي يحتفل بها الغربيون ك رأس السنة الشمسية وبعض مواسم الفصول . وأبيح في هذه المناسبات ما لم يكن مباحاً قبل ذلك في مجتمعات الأسر كالمقامرة والشراب . وقد كسبت الأسرة الشرقية من ناحية وخسرت من ناحية أخرى بهذا الازدواج العجيب في آداب المعيشة . فان الأم الشرقية اقتبست من الغرب كثيراً من عادات الفراغ والنزهة « خارج البيت » ولم تكن كلهما مما يوافق حياة الأسرة وواجبات التربية التي تناط بالأمهات والآباء داخل البيوت ، وساء فهم الحرية النسائية في بعض البيئات فسبق إلى الأوهام أن الحرية تحرر من جملة القيود ومنها قيود الوفاء للأزواج والأبناء . فتداعى بنيان الأسر التي فشت فيها هذه البدعة الغربية ، وامتنحن المجتمع الشرقى بمحنة خطيرة يحاول اليوم أن ينجو منها ولا يزال في محاولاته حتى يتاح له الاستقرار على ملتقى مريح بين دواعى الحاضر ودواعى الماضي ، ودواعى الحرية الفردية ومطالب المجتمع والأسرة .

أما العلاقة بين الطبقات فلم تتغير تغيراً كبيراً في الأم الشرقية بعد الاحتكاك بالحضارة الأوربية . لأن أوربة منعت قيام الصناعات الكبرى في بلاد الشرق واحتكرت أسواقها لمصنوعاتها ، فوقف الزراع وأصحاب الأرض في موقفهم القديم ، وركدت الصناعة فلم تجتمع عصابة من العمال

في صعيد واحد للمطالبة بحقوقها كما تفعل جماعات العمال في العواصم الصناعية الكبرى، وحالت أورة دون تجدد الطبقات بمائل آخر لم تقصده ولكنه فعل فعله في جميع الأقطار الشرقية على تنوع مراقبها الاقتصادية. وذلك أنها أرسلت إلى الشرق أموالها ومصارفها وشركاتها لتستغل أغنياءه وقراءه على السواء، فأصبحت الطبقات الاجتماعية كلها في حكم الطبقة العاملة أمام هذا الاستغلال، وتأجل تقسيم الطبقات من جراء هذا الاتفاق بينها في مواجهة رؤوس الأموال الأجنبية.

وفيما عدا نشوء الحركة التعاونية في المدن والقرى على نطاق ضيق محدود لم تتغير علاقات الاقتصاد بين الطبقات تغيراً يناسب الخطوات السياسية التي خطاها الشرقيون سعيًا إلى التحرير والاعتراف بالمركز القانوني في المعاملات الدولية، وأهم ما يذكر في باب تجديد الطبقات أن انتشار التعليم وازدحام المدن قد ضاعفا قوة الطبقة الوسطى فارتفع لها صوت مسموع في توجيه السياسة الوطنية، ولم تزل الطبقة الفقيرة عالة على الطبقة الوسطى في المطالبة بحقوقها والإفشاء بشكايتها، ولكنها تستغل بالرأى شيئاً فشيئاً خلال هذه السنوات، ولا سيما سنوات الحرب العالمية وما تخللها وأعقبها من دعوات الإنصاف والتقريب بين الطبقات.

وإذا استطرده القول إلى الاقتصاد الاجتماعي — أو الاقتصاد الذي له علاقة بروح المجتمع وأخلاقه — فمن المستحدثات التي لا تهمل في هذا الصدد أن الشرق الإسلامي ترخص في إنشاء المصارف المالية وقبل التعامل

بالقائدة الطيفة التي لا يهتبرها من الربا الفاحش المحرم بنصوص القرآن .
 على أننا ننظر إلى جهود الأمم الشرقية من جميع الاعتبارات فيجوز لنا أن
 نقول إن الوعي السياسي فيها قد سبق الوعي الاجتماعي شوطاً أو شوطين...
 وإن المصلحة القومية تدفع بها إلى الموازنة بين مساعيها في ميدان السياسة
 وميدان الاجتماع، بعد أن استنفدت قوتها الكبرى على إثر يقظتها الأولى
 في تحقيق غاياتها الوطنية وآمالها في الحكومة النيابية .

وقد أجمالنا الكلام في غير هذا الفصل على الوطنية والحكومة النيابية...
 ونضيف إليه في باب التجديد السياسي أن اصطدام الغرب بالشرق كانت له
 آثار أخرى في أعمال الحكومات غير هذه الآثار في أعمال الشعوب .
 فعمدت كل حكومة تملك بعض التصرف في شئونها إلى تبديل نظامها
 العسكري وإنشاء المحاكم الحديثة التي سميت بالمحاكم الأهلية أو المحاكم
 المدنية . ولم يكن لها مناص — قبل إلغاء الامتيازات الأجنبية — من
 اقتباس القضاء الأوربي ومبادئ القوانين الأوربية على الإجمال .

ومن الآثار التي لا تغفل في صدد الكلام على التفاعل بين الحضارتين
 الأوربية والعربية أن سياسة أوربة قوبلت في الشرق العربي بقوة جديدة
 في عالم السياسة تعرف اليوم بالجامعة العربية ، وهي قوة لا تقتصر على أعمال
 السياسة وولاية الأمور لأنها في واقع الأمر مستمدة من يقظة الشعوب وإحياء
 التراث العربي منذ مائتي سنة ، في كل مكان يحتاج أهله إلى معرفة
 اللغة العربية .

ومن المؤلف على السنة المتعجلين إذا رأوا موافقة بين خطة أوربية وحركة شرقية أن ينسبوا هذه الحركة إلى تدبير الأوربيين ويحسبونها من المناورات المصطنعة التي لا ترجع إلى سبب غير ذلك التدبير. وكذلك فعلوا في حكمهم على الجامعة العربية حين لاح لهم أن السياسة الأوربية تماشيها ولا تعمل على إحباطها .

وفي هذا ولا شك انحراف عن الفهم الصحيح .

فإن السياسة الأوربية كأننا ما كان بأسها واقتدارها على التدبير والتمويه لا تملأ شبحاً في الخيال ، ولا تخلق شيئاً من لا شيء ، ولا تصطنع حركة من الحركات التي تساهم فيها الملايين تقوم كلها على محض اصطناع

ومن شأن الدعاة السياسيين أن يستفيدوا من الدعوات في إبانها وفي مكانها ولكنهم لا يسبقونها ولا يخلفونها . بل لا يفهمونها قبل وقوعها ولا يتسلفون النظر إليها . فلم يكن أكثر من المؤتمرات الدولية التي انعمت في القرن الثامن عشر والذي يليه ، ولكنها لم تعرض مرة من المرات للمناداة بحقوق الشعوب أو مبادئ تقرير المصير . ولم يحجموا عن ذلك مجزأً عن الخداع أو كراهة منهم للمناورات ، ولكنهم أحجموا عنه لأن هذه الدعوات لم تكن لها حقيقة ماثلة في حركات الشعوب . فلما وجدت هذه الحقيقة الماثلة كثرت المناادة بها في خطب الساسة وبرامج الوزارات ومباحث المؤتمرات ، وكان من نتائجها فعلاً أن عدد الشعوب المستقلة يزداد عاماً بعد عام .

واليقظة العربية حقيقة ماثلة وحركة طبيعية لا شك فيها، قامت في نشأتها الحديثة على الرغم من السياسة الأوربية ولم تقم باختيارها وتديريها، وعادت إلى التجمع والوحدة بين الحريين العالميتين، لأنها لا بد أن تعود بعد قومتها الأولى. فمنذ أوائل القرن التاسع عشر سئل ابراهيم باشا وهو يناضل الدولة العثمانية : إلى أين تنتهى فتوحاته ؟ فقال : حيث لا يوجد من يتكلم العربية . يريد بذلك أنه ينشئ دولة عربية محضاً ولا يريد أن يتجاوزها إلى بلاد أخرى .

وحوالى هذا الوقت كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد يعلن الثورة على الحكومة العثمانية ويجمع القبائل في جزيرة العرب لتوحيد كلمتها والانحياز بها إلى وجهة الاستقلال عن السيطرة الخارجية .

ولم تكن جزيرة العرب يومئذ تعترف بشيء من السلطان الأجنبي غير السيادة الإسمية والرقابة البعيدة التي لا تتعرض لشئونها الداخلية . فكان أمراء نجد والكويت والحجاز واليمن يأخذون وقلما يعطون في علاقتهم بالدولة العثمانية ، وكانوا على استقلالهم الذى تعودوه منذ القدم في حواضر الصحراء وباديها ، ولا سيما البوادي التي تحجم عنها جنود الدولة ولا تنفذ إليها بغير إذن من أبنائها ، ولولا قرب العراق من مراكز الحدود التي تحميها الدولة بجيوشها لكان شأنها في جملته كشأن الجزيرة العربية .

وكانت أفريقية الشمالية تعتمد على نفسها في مدافعة الفرنسيين عن استقلالها وحوزة أمرائها وشعوبها .

أما في سورية ولبنان، فقد رحبت جمهرة الشعب بحركات الوحدة مع الأمم العربية الأخرى وكانت على اتصال دائم بوادي النيل والجزيرة، وكانت علاقة أمرائها سرّاً وجهراً بمحمد علي الكبير مثار القلق الدائم للحكام العثمانيين . وفي كل هذا كانت السياسة الأوربية تقف من حركات العرب موقف المقاومة والتثبيط ، لأنها عملت على بقاء الأمم العربية في حوزة الدولة العثمانية ، محرومة جهد المستطاع من حقوق السيادة والاستقلال . ولم تفلح هذه المقاومة إلا ريثما استجدت تلك الأمم نشاطها وتحفزت مرة أخرى للوثوب إلى غايتها .

فقامت في مصر حركة المطالبة بمصر المصريين ، وقامت في السودان حركة الثورة على «الترك» كما كانوا يسمون الأجانب أجمعين ، وقامت العرب دعوة واحدة إلى الاستقلال ولكنها كانت تتمتعن من في بلاد آونة إلى أخرى بمحنة المنافسة بين زعماء العشائر وأمراء الأقاليم ، ودخل السوريون واللبنانيون والعراقيون في حزب تركيا الفتاة لأنه الحزب الذي كان يمينهم بالحكومة « اللامركزية » أي حكومة العرب في بلادهم ، كما يشاءون وبمن يشاءون . وفي هذا الدور أيضاً من أدوار القضية العربية كانت السياسة الأوربية تخذل العرب أو تمنعهم أن يبلغوا من الاستقلال غاية ما يقدرّون عليه .

ثم نشبت حرب الأمم قبل ثلاثين سنة ، فتحرّكت الجامعة العربية من جديد، تارة على هدى وتارة على ضلال ، فتسابقت دول أوربة إلى كسب الأنصار من أمم العرب التي استقلت أو التي طمحت إلى الاستقلال ،

وانتهت الحرب والأمم العربية جمعاء متفقة على المطالبة بالحرية والمناداة باسم العروبة في جامعة تتوافر لأعضائها حقوق الاستقلال .
وعلى ما كان من موقف أوربة في المقاومة والتثبيط كانت لها فلتات هنا وفتلات هناك تبدر منها حيناً بعد حين ، في سبيل التشجيع والإغراء .
فكان الإنجليز مثلاً يشجعون المناذاة بمصر للمصريين لأنها تفصل مصر عن الدولة العثمانية ، ولكنهم يثبطونها من جهة أخرى لأنها ثورة صريحة على الاحتلال البريطاني ، وما عسى أن يتطور إليه من بسط الحماية البريطانية في صورة من صورها الكثيرة .

وكان الفرنسيون ينشئون المدارس في البلاد السورية كما ينشئون فيها المطابع والجامع لنشر كتب العرب وثقافة العرب وإحياء التراث العربي القديم . سعياً إلى الفصل بين العرب والدولة العثمانية لاسعياً إلى استقلالهم عن جميع الطامعين ، وكانوا يجتنبون ذلك في أفريقية الشمالية حيث يتفردون بالحكم ولا يستريحون إلى عواقب هذه اليقظة أو هذه الجامعة الثقافية الدينية .

وكان الألمان يقابلون هذا بالتقرب إلى « الجامعة الإسلامية » لأنها تشمل التقرب من الترك والعرب على السواء . ولكنهم كانوا يطمحون من وراء هذه الجامعة إلى بلاد العرب في طريقهم إلى الهند والأقطار الآسيوية ويدفعون السلطان عبد الحميد إلى مد خطوط المواصلات في أنحاء سورية والجزيرة تحقيقاً لأحلامهم ، التي تتلخص في صيحتهم من « برلين إلى بغداد » ... ثم إلى الهند من هذه الطريق .

فالساسة الأوربية قد وجدت حركة قائمة فاستفادت منها تارة بالمقاومة وتارة بالتشجيع. أما أنها تخلقها خلقاً فذلك مخالف للواقع، مخالف لفحوى التاريخ وهى تدخل اليوم فى طور جديد بفضل كيانها القديم لا بفضل السياسة المصطنعة أو التدبير الخارجى من جانب الإنجليز أو جانب الأمريكين .

وقد تكون لبريطانيا العظمى مصلحة فى مصادقتها ورغبة فى معاملتها ، ولكنها تجد هذه المصلحة فى التفاهم بينها وبين الإغريق أو الايطاليين ، فلا يقول قائل إنها خلقت القومية الإغريقية أو خلقت القومية الإيطالية ، أو أنها قادرة على تجاهل القوميتين وإحباط ماتريمان إليه إذا تحولت السياسة من خطة إلى خطة فى المستقبل القريب أو المستقبل البعيد

فالجامعة العربية حركة طبيعية من قديم الزمن وهى طبيعية فى هذا الزمن على التخصيص . لأن العصر الحاضر ينادى باحترام حقوق الأوطان وينادى بالتعاون فى الجوار ، وينادى بالتعاون الشامل فى المسائل العالمية الكبرى . وأبناء العربية يحبون الاستقلال لأوطانهم ويتجاورون فيحتاجون إلى التعاون فيما بينهم على المرافق المشتركة وهى أكثر من أن تنحصر فى مرافق الماضى أو مرافق الحاضر أو مرافق المستقبل على انفراد ، وكلهم يودون أن يعانون وأن يعينوا فى المسائل العالمية الكبرى التى تمسهم مباشرة أو تمسهم بنتائجها التى تعم البشر أجمعين

وللجامعة العربية مستقبل سياسى رهين بأحوال العالم وتقلباته وانتظام العلاقات بين شعوبه وحكوماته ، ولكن اليقظة العربية حقيقة لا ترتهن بالسياسة وحدها . لأنها مستمدة من طبيعة الأشياء لا من برامج الدولة والرؤساء

الحكومة البرلمانية

حرم القرآن الكريم الحكم المطلق وأنكر سلطان « الجبارين » في الأرض وفرض الشورى على النبي وخلفائه فقال : « وشاورهم في الأمر » .
« وأمرهم شورى بينهم » وقرر المساواة في العدل بين جميع الناس وإن قضى بينهم بتفاوت الدرجات .

ويقراً المسلم القرآن فيحس إحساساً « شورياً » ويتعلم فريضة الشورى بالإيحاء والتلقين فضلاً عما فيه من الأمر الصريح بالمشاورة وسؤال أهل الذكر واجتناب الطغيان في السلطان والاستبداد بالحكومة ، لأنه يرى أن أول عمل من أعمال الخليفة الإنسانية كان حقيقاً أن يسمى بلغة العصر الحاضر عملاً « دستورياً » من جانب الخالق جل جلاله ، يقوم على الإقناع ولا يقوم على الإكراه والاختضاع .

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال

ألم أقل لكم انى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . . . »

فلم يكن الاستخلاف فى الأرض بالاختضاع بل بالاقناع ، ولم يصبح الخليفة الموعود أهلاً لهذه الأمانة الا بعلم ويعلمه ويجهله سائر الخلائق ممن فضله عليهم الخالق بهذا الاستخلاف

ووحى هذه المعانى المستفادة بالإيحاء والاستكناه يلقن المؤمن بالقرآن « حسن » الشورى والنفرة من الاستبداد ، لأن الإيحاء والاستكناه أقرب إلى التلقين من الأمر الصريح

فالأمر « بالحكم الدستورى » قديم فى الحياة العربية ، أصيل فى الدولة الإسلامية ، ولكنه المبدأ الذى سبق الأطوار الشعبية بعدة قرون . فلم تنهياً له الجماعات الأنسانية الا بعد الدعوة الحمديّة بألف سنة أو تزيد . لأن الأمر بالشورى ينفذ نفاذه حين يوجد معه صاحب الحق الذى يطالب به من ينسأه ويرد إليه من يحمده عنه . وليس صاحب الحق هنا غير « الشعب » الذى يتعلم ذلك الحق ثم يشعر بالحاجة إليه ثم يملك الوسيلة التى تخرجه من حيز « المبدأ » الواجب إلى حيز « العمل » النافذ . ولم يكن تمام هذه الاطوار ميسوراً قبل أجيال تعقبها أجيال وأهوال تتلوها أهوال . وبومئذ تصبح الشورى « نظاماً » ياتمر به الحاكمون والمحكومون ، ويوشك أن يجرى فى الأمم مجرى الحوادث الطبيعية التى تتقرر بالضرورة الغالبة قبل أن تتقرر بالاختيار والاستحسان

فلما بلغت هذه الأطوار تماماً كانت الحكومة الشورية أو الحكومة الدستورية نظاماً أوروبياً يتلقاه الشريون عن الأوربيين ، ولا يتلقونه مذهباً غربياً يحتاج إلى إقناع ولا عقيدة جديدة تحتاج إلى تبشير

نعم إن القارة الأوربية عرفت النظام البرلماني على صورة من صوره الأولى قبل الميلاد بعدة قرون ، فنشأ مجلس الشيوخ في رومة ونشأت المجالس التي تماثله في أثينا وإسبرطة وبعض الأقاليم الاغريقية ، ثم نشأت بعدها مجالس أخرى أدنى إلى نظام المجالس التمثيلية الحديثة وأقرب إلى الحكم الديمقراطي الذي تشترك فيه جميع الطبقات

ولكنه كان هنا « نظاماً » من النظم الخاصة ولم يكن الأمر فيه أمر المبدأ العقلي والحقوق الانسانية ، فلم يعمل اللاتين والأغريق بهذه النظم تقريراً لحق الانسان في الحرية أو تعميماً « لمبدأ عقلي » يجوز تطبيقه ، أو يجب تطبيقه في جميع المدن وبين جميع الشعوب . ولكنهم عملوا به لأنه حيلة صالحة لسياسة أمة بعينها على أقدار من فيها من رؤساء العشائر ومن يتنافسون على الحكم والسيادة ، ولما تطور الحكم الشعبي في أثينا على عهد كليستين الديمقراطي حتى أصبح حق النيابة حقاً عاماً لمن بلغ الثلاثين في الدوائر الانتخابية المختلفة لم يكن هذا « التطور » عقيدة إنسانية قابلة للتعميم ولا تسليماً بالمبدأ الذي يقوم على الحرية وتقضى به الأصول الأخلاقية ، ولكنه كان تديراً موضعياً يناهض به تدير الطغاة الذين كانوا ينافسون

ذلك الزعيم الديمقراطي بقوة القبيلة أو قوة العصبية ، ولعله قد خطر له الاستنجد بجماهير السواد لإشراكها في الحكم كما خطر له الاستنجد بالفرس لانتزاع الحكومة من طغاة القبائل والعصبيات .
فالحضارة العربية قد سبقت الغرب بمبدأ الحكومة الشورية في مجال العقيدة والأخلاق .

والغرب قد سبق الحضارة العربية بحكومة الشورى في مجال النظم الواقعية التي تتمخض عنها حوادث التاريخ
ولا نظن أن الحكم الدستوري كان ينتقل إلى بلاد الشرقين الأدنى والأوسط بهذه السهولة لو لم يكن له أساس قائم من عقائد الناس واعتراف الحاكمين والمحكومين بمبادئه وأصوله ، فإن الأمم الغربية قد ضيقت جهودها الأولى في إكراه الحكام المطلقين على النزول لها عن دعوى الولاية « بالحق الإلهي » ودعوى السيادة عليها بتفويض السماء . فكان عليها أن تجتاز نصف الطريق - بل نصفه الأوعر الأطول - في تقرير المبدأ الذي سلمه العرب حكاماً ومحكومين قبل نشأة الحياة النيابية الحديثة بألف سنة ، وهو مبدأ الشورى والمبايعة الحرة والرجوع بالحكومة إلى مصلحة الرعية واتفاق الكلمة بين ذوى الرأى فيها .

والحاكم المطلق - في الشرق أو في الغرب - يأبى أن يشارك في أمره ولا يذعن للحكم الشورى باختياره ، ولكن الفرق عظيم بين حاكم يستطيع أن ينكر أساس الحكومة النيابية وحاكم لا يستطيع إنكاره ولا

يجسر على الجهر بذلك الإنكار مخافة اتهامه بالخروج على أحكام الدين وعصيان رب العالمين . بل الفرق عظيم بين حاكم ينكر الحكم النيابي وهو يعتصم بالحق الالهى وتفويض السماء وحاكم يخاف من إنكاره لأنه يخالف الحق الألهى كما يخالف تفويض السماء بذلك الإنكار .

لذلك كانت معارضة السلاطين والأمراء الشرقيين فى الحكومة الدستورية معارضة تقوم على الاعذار الموقوتة ولم تكن معارضة قائمة على الأسس والأصول ، وكان معظم هذه الاعذار مما يرجع إلى السياسة الأوربية والعلاقات الأجنبية التى كانت تعوق النظام النيابى فى بلاد المشرق وتمهد العذر للسلاطين والأمراء فى المعارضة أو التسوية .

فكان سلطان الدولة العثمانية يؤمن بواجب الشورى ويسمى الرتبة الكبرى عنده رتبة « المشير » لأنه يخشى أن يصارح رعيته بأنه يستأثر بالرأى ويتولى شئونها على سنة الاستبداد ، ولكنه كان يمانع فى تعميم الحكم النيابى بين رعاياه لأن فريقياً من هؤلاء الرعايا يخالفونه فى الجنس والدين واللغة ويمثلون الدول الأوربية عليه ولا يخلصون فى خدمة الدولة إذا تسنموا مناصبها العليا واطلعوا على موضع الأسرار من سياستها الخارجية أو سياستها الداخلية .

وكانت المناظرة بين روسيا وبريطانيا العظمى فى البلاد الإيرانية تحول دون استقرار الأمر وانتظام السعى فى توطيد الحكومة النيابية ، لأنهما

تبلغان من بطانة الحكم المطلق مالا تبلغانه من حكومة نياية تخضع لرقابة الشعب وتكشف له عن تصرفاتها في مسائل الشركات والامتيازات .

وقد نزل المحتلون الإنجليز بمصر في أواخر القرن التاسع عشر وفيها حكومة نياية تطورت بها التجارب المتوالية من عهد محمد على الكبير ، فعطلوها لأنهم لا يستطيعون أن يجمعوا بين إشرافهم على الإدارة المصرية وإشراف المجلس النيابي عليها ، ثم اقترن طلب الدستور بطلب الاستقلال فأصبحت الحكومة النياية مرادفة للحكومة الوطنية في برامج الأحزاب المصرية ، وأصبح الحكم الأجنبي هو الحائل الأكبر دون قيام الحكم النيابي الذي ينشده أحرار المصريين .

وعلى هذا تعتبر الحياة النياية كما رسمتها الأوضاع الحديثة ثمرة أوربية انتقلت إلى الشرق من حضارة الغرب في العصر الحديث . ولكن الشرقيين عرفوها فاقتبسوها ولم يعرفهم بها الغربيون فيفرضوها عليهم فرض المعلمين دروسهم على التلميذ الذي يكره ما يفرضونه عليه . لأن مطامع الغرب كثيراً ما عرقلت خطوات الشرق كما رأينا في حركاته الدستورية ، والفضل في تهيؤ الشرق لقبول هذه الثمرة الأوربية راجع إلى عقيدة الحرية والشورى التي بثتها حضارة العرب بعد ظهور الإسلام ، ولم تكن غريبة عن الحياة العربية الأولى قبل ظهور الإسلام .

الوطنية

حب الوطن غريزة معروفة في الإنسان من أقدم عصوره الاجتماعية .
 عُرفت في البدو الرحل كما عرفت في سكان المدن وأصحاب الأرض الزراعية
 و بقيت لنا من دلائلها في اللغة العربية هذه القصائد التي يتغنى بها إلى اليوم
 من يذكرون الديار ويحنون إلى المربع والأطلال ، ولو طال بهم عهد فراقها
 وانقطعت عليهم سبيل الرجعة إليها .

لكنّ الوطنية بمعناها الحديث شيء غير هذه الغريزة . لأنها مجموعة من
 الحقوق أو الصلات الروحية والثقافية ، قد انفرد بها الإنسان في عصره
 الحديث بعد القرن الثامن عشر على وجه التقريب ، واختلف فهم الناس
 إياها عن ذلك الشعور الغريزي الذي يتفق فيه الإنسان وكثير من الأحياء
 الأنيسة ، بل يتفق فيه الإنسان وبعض الضواري التي تأوى إلى عرائنها
 وأوجاها وأجامها ولا تستبدل بها غيرها ما استطاعت المقام فيها .

ولم يكن من اليسور أن تنشأ الوطنية بمعناها الحديث قبل القرن الثامن
 عشر أو قبل الأطوار الاجتماعية التي تقدمتها وكانت ممهدة لظهورها وانتقالها
 من حيز الغرائز المشتركة إلى حيز الصلات الروحية والثقافية التي ينفرد بها
 الإنسان في مجتمعاته . لأن هذه الأطوار كانت تناقض الوطنية في بعض الأحوال

وكانت تخفيها في أحوال أخرى ، وكانت على الجملة خطوات سابقة لا بد منها قبل التطرق إلى الخطوات التي تليها

فكان لا بد من تطور عهد الأقطاع قبل شعور الإنسان بوطنه في نطاقه الواسع ومصالحه المتشابكة . لأن انتماء الناس إلى « إقطاعات » متعددة في قطر واحد يربطهم بضروب شتى من الولاء للسادة المتعددين الذين يسيطرون عليها ، ويعودهم ضروباً من المحالفات والمخاصمات تتغلب فيها الزمرة والطائفة على الأمة أو الدولة نفسها في بعض الأمور

وكان لا بد من تطور الجامعات الدينية قبل الشعور بمعنى هذه الوطنية . لأن الإنسان يرضى في الجامعات الدينية أن يحكمه من ليس من أبناء وطنه لاتفاق الحاكم والمحكوم في العقيدة والمراسم الروحية ، ويكره أن يحكمه من لا يدين بدينه ولو كان من بلده وجواره ، ولا يزال كذلك حتى يتعذر حكم الأوطان المختلفة بحكومة واحدة قائمة في مراكزها البعيدة عنها ، لاختلاف المرافق واختلاف النظر إلى الحقوق والتبعات ونشوء الطبقات الاجتماعية التي تتنافس في الأوطان المتعددة ، وإن جمعتها علاقة وثيقة واحدة

ولما تطور عصر الإقطاع وعصر الجامعات الدينية معاً أو على التعاقب بين جيل وجيل قام من بعدهما سلطان الملوك المطلقين الذين ساعدتهم قوتهم المطلقة على قهر أمراء الإقطاعات والاستئثار بسلطان العرش وما يرتبط به من الدعاوى والحقوق . فكانت قوتهم كفيلة لهم بيسط كلمتهم على رعاياهم وحصر فرائض الولاء في أشخاصهم أو في أسرهم ، وكانت « المملكة »

سابقة للأمة أو سابقة بطبيعة الحال للحقوق التي تنشأ من الاعتراف للأمة بالسيادة على بلادها . ولا يفهم الوطن على أنه بلاد « الأمة » ومناطق سيادتها قبل أن تصبح الأمة مصدرًا للسلطان كله ويصبح الملك خادماً للوطن ينوب عن الأمة في تدبير مصالحها ، وقبل أن تنبغ الطبقة الوسطى التي تضطلع بالحكم مع تقييد الملوك وزوال السادة الأقطاعيين . وهذه هي العقيدة التي تمخضت عنها أطوار كثيرة من عصر النهضة إلى عصر الثورة الفرنسية ، ولم يكن قد توطد لها الأساس الذي تعلق عليه قبل تمام تلك الأطوار ولقد كانت الأمة العربية أولى الأمم أن تنشأ فيها الوطنية بهذا المعنى الحديث قبل نشأتها في أعقاب الثورة الفرنسية ، لأنها كانت تدين بأن الأرض لله وأن الملك خادم الشعب يحكمه باختياره قبل أن تتقرر هذه الآراء في أمم الحضارة الغربية . ولكن التاريخ لا يسبق أوانه ، ولا بد للجامعة الدينية من دور تجرى فيه وتبلغ مداه . وقد كانت في أوجها وكانت معالم الوطنية في غيرها تنتظر أسبابها ومواقيتها . فلما حان الميقات المقدور كان من عجائب أطوار التاريخ أن يأخذها الشرقيون عن الغربيين وأن يأخذوها تارة كارهين وتارة مختارين .

نعم أخذوها تارة كارهين وتارة مختارين لأنهم أخذوها بالتعليم والمحاسبة وأخذوها بكفاح الثورة على الاستعمار . فكانت المناداة بحقوق الإنسان هي فاتحة الاعتراف بحقوق الأوطان ، وكانت غارة الأوربيين على أوطان الشرقيين محرصاً لأبناء تلك الأوطان على المطالبة بتلك الحقوق ، وأشعل

فيهم نار الغيرة الوطنية أن الاستعمار يمسهم في كراماتهم وعقائدهم ومصالحهم ولا يرضيهم بمجالة واحدة من الحالات التي تسوغ للمرء باختياره أن يمتثل الخضوع لمن يخالفه في الوطن واللغة والدين وينازعه الرزق وينكر عليه الحقوق التي ينادى بها في بلاده ويسمها بحقوق الإنسان .

نعم إن المغلوبين كانوا يشورون على الغالبين في جميع العصور قبل المناداة بحقوق الإنسان ، ولكنهم كانوا يشورون للألفة من الغلبة والألم من الغضب والمشاركة في الأرزاق ، وهي ثورة لا ترجع إلى الإيمان بالحقوق الوطنية ولا إلى إنكار حق الغالبين في تسخير المغلوبين ، بل ترجع إلى كراهة الضيم ومقابلة العدوان بالعدوان ، ويختلف الصراع على الغلبة جد الاختلاف من هذا الصراع بين غاصب الحق والمطالب به وهما متفقان معا على حق صاحب الوطن في وطنه . فإن الثائر القديم إنما كان يشور لأن حالة السيد المطاع خير من حالة العبد المطيع . ولأن المرء لا ينزل عن رزقه وكرامته وهو قادر على أن يحتفظ بهما لنفسه ، أما الثائر الحديث فهو في موقف « المقاضى » الذي يطالب بترائه وماله ، ويرد الأقوياء إلى شريعة غير شريعة الغلبة المرفوضة في ضمائر الناس .

وظلت العاطفة الوطنية ممزوجة بالعاطفة الدينية في شئون السياسة العامة ردحا من الزمن بعد الاعتراف بسيادة الأمة وقيام « فكرة الوطن » على هذه السيادة ، وكان شأن أوربة في ذلك كشأن الأمم الشرقية بغير اختلاف كبير . فتارت إيطاليا واليونان في طلب الاستقلال وكتناهما أمة

ذات تاريخ عريق في الثقافة والعن وأصول الحضارة الأوربية ، ولكن حماسة أوربة لنصرة القضية الإيطالية لم تبلغ قط مبلغ الحماسة الشعبية لنصرة القضية اليونانية ، لأن اليونان كانت تتور على الترك إذ كان الايطاليون يشورون على النمسا أو على الكنيسة البابوية . وفي الوقت الذي كانت فيه أمم كأم البلقان تظفر من العطف الأوربي بأوفي نصيب في قضايا المطالبة بالاستقلال كانت أوربة تنظر بعين الموافقة أو قلة الاكتراث إلى تقسيم الوطن البولوني بين روسيا والنمسا وألمانيا ، وعلى بعضها حكومات تفاغلت فيها جرائم الفساد والاستبداد وأنكرت حقوق الانسان ومبادئ الاعتراف بالأوطان .

وظهرت نزعة الاستقلال عن دعوى الخلافة الدينية بين الشرقيين المسلمين في أوائل القرن الثامن عشر مقترنةً بظهور هذه النزعة في القارة الأوربية ؛ فكان السلطان العثماني الذي يلقب بلقب الخلافة يولي على مصر والياً من قبله ويختار المصريون المسلمون والياً غيره كما حدث على عهد محمد علي الكبير . ونادى طلاب الاستقلال « بأن مصر للمصريين » في أواسط القرن التاسع عشر وجعلوا هذا المبدأ شعاراً لهم في حركة التحرير مع قيام السيادة العثمانية التي زالت بعد ذلك بخمسين سنة . . . ثم ظلت هذه السيادة تتردد في بينات الأحزاب السياسية إما بفعل الشعور الديني أو بدافع من الرغبة في مقاومة الاحتلال البريطاني بحجة شرعية لا ينكرها . فلم يكن هذا الامتزاج بين عواطف الوطن وعواطف الدين غربياً في عالم الواقع أو عالم التفكير ، لأن العواطف الجديدة في تطور الأمم لا تولد دفعة

واحدة خالصةً من آثار سوابقها وملايساتها، وكان على العالم كله — بين شرقيه وغربيه — أن يقضى زمنا ما قبل أن يفهم أبناء الوطن أن حرمانهم نعمة الحرية والاستقلال هو اعتداء عليهم وعلى كرامتهم ولو جاءهم هذا الاعتداء ممن يماثلهم في النحلة أو اللغة أو العقيدة الدينية

وربما كان الأصح — أو الأوضح في نفسير الحقائق — أن يقال إن معني الوطنية الحديث وليه. الحضارة العصرية لا وليد الذهن الأوربي أو الطبائع الغربية . لأن قارة أوربة وجدت منذ القدم ولم توجد فيها الوطنية بمعناها الحديث . فلما انتهت أطوار الاجتماع إلى حضارة العصر الحاضر كانت أوربة هي مسرح التاريخ الذي تمثلت فيه هذه الأطوار، وكان فضل الأمم الشرقية في فهم هذا المعنى الحديث أنها نقلته بشيء من الاختيار والتميز، ولم تنتظر به تسلسل الوقائع التي مرت تباعا بالأوربيين قبل أن تفرضه عليهم الضرورات .

الحركات الدينية

تعلم الشرقيون من أوربة ليقاوموها بسلاحها

ويقال هذا عن الشرق الأقصى كما يقال عن الشرق الأدنى ، مع اختلاف العقائد والبيئات والأحوال الاجتماعية . فأن اليابانيين لم يتحركوا لمحاكاة أوربة في حضارتها وعلومها وصناعاتها إلا بعد أن اصطدموا بها وعجزوا عن مقاومتها .

وكان الفضل الأكبر لأوربة على الشرق كله هو الفضل الذي جاء على الرغم منها ، وهو تنبيه أذهان الشرقيين إلى حقائق الحياة وتفتيح أنظارهم على الأسباب الصحيحة التي تقترن بها نهضات الشعوب .

وكان الشرقيون قبل ذلك يعلمون أنهم متأخرون متخلفون ، ولكنهم يفهمون العلل التي أخرتهم وقضت عليهم بالتخلف في سباق الأمم كما يفهم الجاهل علة مرضه وعجزه . فيرجع إلى الشعوذة ولا يرجع إلى الطب الصحيح ويسأل الدجالين والمخرفين ولا يسأل الأطباء والعارفين

وقد جهلوا دينهم كما جهلوا دينهم . لأنهم خلطوا بين عاداتهم وعقائدهم وبين خرافات الجحود وحقائق العبادات . فإذا قيل لهم أنهم تأخروا لمخالفة

دينهم ونسيان وصاياه وآدابه عادوا إلى الخرافة الفاشية ولم يعودوا إلى الدين المهجور.

فلما قهرتهم أوربة مرة بعد مرة في عدوانها عليهم ومقاومتهم لعدوانها فهموا مضطرين أسباب هذه الغلبة ورجعوا بعد حين إلى علومها وصناعاتها ونظم السياسة والحكم فيها . فرجعوا إلى الأسباب الطبيعية وفهموا علل الوقائع الماثلة أمامهم على وجهها المعقول . فكان ذلك أول تدريب للذهن على حسن التعليل وفهم طبائع الأشياء .

وكادت الأراء أن تتفق على منهج واحد للإصلاح : وهو اقتباس العلم الحديث ومجارة العصر في المعيشة والتفكير .

وأقبل المسيحيون من أبناء الشرق على المدارس العصرية يتعلمون ما تلقيه عليهم من دروس التعليم الحديث غير متحرجين من موضوعاتها ولا من نيات التعليم فيها ، وأحجم المسلمون عن المدارس التي فتحت في بلادهم لأنها كانت في أيدي المبشرين وأعوان التبشير ، ولكنهم لم يجمعوا عن إرسال أبنائهم إلى أوربة نفسها حيث تنفصل المدارس عن الهيئات الدينية . فجمعت حكومة مصر في عهد محمد على الكبير مئات من نخبة الطلبة لإرسالهم إلى العواصم الأوربية وتعليمهم الطب والهندسة والآداب والفنون العسكرية على أسانذتها ، أو لتزويدهم في مصر بما يستطيع تدريسه بها من تلك العلوم على أسانذة من الأوربيين .

ولم ينقض جيل أو جيلان بعد احتكاك أوربة بالشرق حتى اتفقت كلمة

المسلمين على نظرة جديدة إلى الدين . وأجمعوا في أنحاء الأرض على أن البدع والخرافات التي شقي بها أسلافهم وشقوا بها في زمانهم ليست من الدين الاسلامي في شيء . ولكنهم سلكوا في علاج الداء مسلكين مفترقين على حسب نصيبتهم من العلوم العصرية : فجنحت الأمم التي أخذت بنصيبتها منها إلى التوفيق بين الدين والعلم الحديث ، وجنحت الأمم الأخرى إلى نبذ جميع المستحدثات والرجوع بالدين إلى بساطته الأولى كما فهموها ، ونشأت هنا وهناك حركات دينية شتى بعضها على هدى وبعضها على ضلال ، ولكنها كلها كانت من قبيل الحركات الطبيعية التي تتصل بطبائع الأمم وبواعث البيئة في حاضرها وماضيها ، ولم تكن محض اختراع منقطع عن الدنيا محصور في النزعات الأخروية التي يفرغ لها من خرجوا بنسكهم وعبادتهم من معترك الحياة .

ولهذا أخذت هذه الحركات من طبائع الأمم التي ظهرت فيها سواء منها ما اهتدى أو ضل عن السواء .

فظهر في الهند « غلام أحمد القادياني » فزعم أنه هو عيسى بن مريم وأنه هو المهدي وهو الإمام المنتظر في مذهب الشيعيين ، ليوفق بين الإسلام والمسيحية وبين الشيعيين والسنيين ، وادعى فيما ادعى أنه تلبس بروح مريم العذراء ثم تلبس بروح المسيح على النحو الذي يمثل به البراهمة صورة برها وهو يجمع بين الذكورة والأنوثة في جسد واحد . وصدق نفسه وصدقه أناس من مريديه حين خيل إليه انه روح الله حلت في جثمان إنسان لاقاذا المسلمين والمسيحيين والبراهمة بدينه الجديد .

ومن اليسير جداً أن يلمس المرء في هذه الحركة بقيه من بقايا البيئة الهندية التي نشأت فيها عقيدة تقمص الأرواح وتجدد الروح في جثمان بعد جثمان . تارة جثمان ذكر وتارة جثمان أنثى ، ومرة رسم حيوان ومرة رسم إنسان .

وظهر في إيران ميرزاً على محمد الشيرازى وزعم أنه الإمام المنتظر ثم انتحل عقيدة الاسماعيلية وبث فيها عقيدة وحدة الوجود ، ثم وثب من ذلك إلى القول ببطلان الشريعة الظاهرة والأخذ بالحقيقة الباطنة التي تبيح أصحاب الحلول — حلول الإله في الإنسان — أن يتصرفوا في الأحكام والقواعد الدينية تصرف الوحي الجديد ، لأنهم يستوحون مشيئة الله فيما يقولون ويعملون . ثم جهر بالغاء بعض الشعائر المقدسة التي اتفق عليها المسلمون بنصوص القرآن .

ومن اليسير جداً أن نلمس في هذه الحركة نزعة البيئة التي نشأت فيها طلائع الباطنية والاسماعيلية ، بل نزعة البيئة التي نشأ فيها الإيمان بحلول أورمزد في جسد « مترا » رسوله الأمين في حربته الأبدية لإله الشرأهرمان وظهرت في الجزيرة العربية دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي تنكر الترف في الكساء والبناء ، وتبطل معاني الرموز والاشارات والتوسل بشيء من الأشياء يقع عليه الحس ، من جماد أودى حياة

ومن اليسير جداً أن تلمس فطرة الصحراء في هذا الصرامة الخلقية وهذا الفصل الحاسم بين عالم الحس وعالم الغيب ، خلافاً لتلك الأقاليم الهندية

والفارسية التي امتزج فيها الحس بالتخيل واتصل فيها عالم الأرض وعالم السماء
وظهرت في السودان دعوة المهديّة لتحريم الترف والتبليغ بالطعام اليسير
والاكتفاء بالمرقعات التي يلبسها الدراويش ، وتحريك الشعب للجهاد
« اترك » وإخراجهم من البلاد ، وهم عند أصحاب هذه الدعوة كل جنس
غير الجنس العربي ، ولا سيما الأجناس البيضاء .

ومن اليسير جداً أن نلمس في هذه الدعوة ثورة السودانى على مستغليه
بالوسيلة التي في وسعه أن يثير بها اخوانه للجهاد ، ومحاولته أن يعالج
الفساد بالعلاج الذي يجدى في معيشة السودان البدائية التي كانت يومذاك
خلوّاً من عقد الحياة العصرية ومشكلات المجتمع الحديث .

وظهرت في مصر دعوة الاصلاح التي وجدت أمامها الأكبر في الشيخ
محمد عبده رحمه الله ، فكانت تعليماً جديداً في مدرسة قديمة ، أو كانت
تفسيراً للقوانين الالهية لا يخرج بها عن نصوصها ولكنه يحفظها في تلك
النصوص ، ويقتبس منها المعنى الذي يوافق معارف العصر الحديث .

ومن اليسير جداً أن نلمس في هذه الدعوة روح مصر التي عرفت نظام
الحكم منذ ألاف السنين ، وتعودت أن تدين بنصوص الأمر والنهي من
ملك بعد ملك وأسرة بعد أسرة ، فليس فيما عمله أو تدين به إلا ما هو
نص محفوظ أو مستمد من تفسير النص المحفوظ ، بالمعنى الذي لا يخرج
عليه . . . أو هي روح مصر التي عرفتها منذ قام فيها بالنبوءة فرعونها
أخناتون . . . وهي الأمة الوحيدة التي تلقت نبوتها من عرش ووصولان .

وليست الحركات الجامحة بين هذه الحركات هي الأثر الباقي أو الأثر الشامل الذي أحاط بانعالم الاسلامى فى حركة الاضطراب التى جاشت بين أرجائه من جراء الصدام بينه وبين الحضارة الأوربية ، ولكنها هى العجاجات التى دلت على قوة الرجة واختلاف مهاب الرياح . أما الأثر الباقي أو الأثر الشامل فهو خلوص الأذهان من أوشاب الخرافات والأباطيل التى كانت تعوقها عن فهم الحقائق وإدراك العلل والأسباب والاستواء على نهج التفكير الصحيح ، والايان بالدين ايماناً لا يمنع التقدم ولا يعرقل جهود المصلحين ، وتمكين المسلم من أن يرضى عقله ويرضى ضميره ويزيل الفوارق ما استطاع بين رضى العقل ورضى الضمير .

وقد صمد الإسلام للرجة الأولى وانتظمت المصالحة بينه وبين الحضارة العلمية ، فلم تعد المشكلة اليوم مشكلة بينه وبين العلم الحديث أو التفكير المستقيم ، وإنما المشكلة اليوم أن يؤدى رسالته ورسالة الأديان عامة فى مكافحة اللوثة المادية التى تلغى مطامح الروح وتود لو جعلت الإنسان حيواناً بغير دين غير دين المعدات والا جسام .

الأخلاق والعادات

من العسير أن يقال إن الأخلاق الأوربية انتقلت إلى الشرق بمحاسنها أو مساوئها بعد احتكاك الشرقيين بالحضارة الغربية . لأن العوامل التي تتولد منها الأخلاق - بين وراثية وأقليمية واجتماعية - لا تنقل من أمة إلى أمة في فترة قصيرة كالفترة التي مرت بالشرق الحديث بالقياس إلى تاريخه الطويل .

لكن التشبه بالأمة الغالبة في عاداتها ومظاهر معيشتها هو نفسه عادة من العادات الأصلية في طبائع الناس . وقد تعودها الشرقيون كما تعودتها من قبلهم سائر الأمم ، فتشبهوا بالأوربيين في هذه المظاهر منذ شعروا بالافتقار إلى مصنوعاتهم واستكانوا إلى الضعف أمام قوتهم . فلبسوا ملابسهم وأكلوا ما كلهم وسلكوا مسالكهم في أوقات فراغهم ولهوهم ، وكثر ذلك في المدن الكبرى والموانئ المطروقة لضرورة الاتصال بين أهلها وبين الأوربيين في المعاملات والمرافق التجارية ، ثم تسرب قليلا قليلا إلى داخل البلاد جريا على سنة أهل الريف في محاكاة أهل الحضرة والتمثل بهم في سمت الوجاهة وشارات الترف والحضارة . فتجاوزت المحاكاة حدود الضرورة ومقتضيات المعاملة .

وكان من تلك العادات ما هو خير وما هو شر . فمن الخير الاقبال

على الألعاب الرياضية والنزهة الخلوية ، ومن الشر الاقبال على المراقبة والمحاصرة بين الجنسين ، مع وجود الرقصات الوطنية البريئة التي يتلاقى فيها الجنسان على نحوٍ لا يخالف آداب المروءة والفروسية ، ولا يصعب تهذيبه وتحسينه حتى يصبح رياضة من الرياضات التي تحمي النفس والجسد ولا تخل بالأدب والحياء .

وليس من الحق أن الحضارة الأوربية خلقت الفساد في الشرق خلقاً من حيث لم يكن له وجود قبل تمرس الشرقيين بأسباب تلك الحضارة . فإن الشرق قد منى في أيام جموده واضمحلاله بضروب شتى من الفساد كانت تنخر في عزائمهم وتضنيه ، ولكن الحق أن الحضارة الأوربية زودت الفساد بمسحة من الطرافة تستهوى النظر وتنفي عنه الشين الذميم الذي كان يصد عنه أصحاب المروءات ، فاستباحه من لم يكن يستبيحه قبل ذلك .

ولم تسلم أصول الأخلاق من صدمة عنيفة أو مساس رقيق من جراء الالتقاء بين الشرق القديم والحضارة العصرية ، فإن أصول الأخلاق تقوم على العرف أو سلطان الجماعة على الأفراد . وقد صُدمت هذه الأصول في الصميم عن قصد وعن غير قصد من الأوربيين أو الشرقيين على السواء . وكانت صدمتها من جهتين مختلفتين ، وقد يبدو للنظرة الأولى أنهما متناقضتان .

فالمظاهر الأوربية قد خامرت قلوب الشرقيين بالشك القوي في حقائق العرف الاجتماعي الذي درجوا عليه ، فرجعوا إلى أنفسهم يتساءلون عن قواعد ذلك العرف ومبلغها من الحقيقة والسادد، واعتراهم هذا الشك في

عرفهم القديم قبل أن يخلفوه بعرف جديد يناسبهم ويصلح لهم ويتأقلم لهم
أن يتواضعوا عليه .

وهذه إحدى الصدمتين

أما الصدمة الأخرى فكانت من قبل الحرية الفردية التي أبحاث
لل فرد فجأة أن يستقل بأهوائه ونزواته وآرائه ، وإن خرج بها عن آداب
الجماعة المتفق عليها . فأصبحت الحرية مرادفة لطلب التغيير والتبديل ،
أو مرادفة للجراة على النقد والمعابة . واقتربت قلة الحياء بقلة المبالاة ، كما
اقتربت الشجاعة الأدبية أحياناً بالإقدام على المعائب والشهوات .

وإذا كان في هذا التحول مدعاةً للتشاؤم والتطير من المستقبل فهو
لا يخلو في بعض دلالاته من دواعي التفاؤل والرجاء . لأن عصر الجمود في
البلاد الشرقية قد خلف وراءه كثيراً من الانقراض المعطلة والأركان
المتداعية . ولا بد من هدم قبل كل بناء ، ولا بد من غبار وسقوط حول
كل مهدوم ، ولا بد من تعثر قبل كل استقامة على السواء . فإذا تكشف
الغبار واتضحت القواعد الباقية والقواعد التي يرتفع البناء الجديد على أساسها
فقد يهون التشاؤم ويبطل التطير ، وتترأى للبصائر والأبصار معالم الثقة
والاطمئنان .

والحكم للغد فيما يقر عليه القرار .

فليس على الغيب بهزيم أن تنبعث من جانب الشرق رسالة روحية
تتجدد بها أخلاق الشرقيين وأخلاق الغربيين .
فكلها في حاجة إلى التجدد في هذا الزمان .

الأدب والفن

تصدى للترجمة إلى اللغة العربية قديماً أناسٌ من غير أهلها
واشتغل أهلها بالترجمة أخيراً وهم يجهلون لغتهم ولا يحفظون قواعدها
أو يحسنون أساليبها

فوقر في الأذهان أن أسلوب الترجمة علم على الضعف والركاكة ومخالفة
الذوق العربي والقواعد اللغوية . لأنه لم يخل في الزمن القديم ولا الزمن
الحديث من الدخيل والمبتذل واللحن والتواء العبارة وسقم التركيب
ولكن النهضة في الشرق العربي صُحبت بإحياء الكتب المهجورة وذخائر
الشعر والنثر التي تفيض بالبلاغة العربية من معدنها ، فتجددت الأساليب
وصقلت العبارات وسلمت الأذواق ، واقترنت معرفة العربية بمعرفة اللغات
الأوربية فخلصت الترجمة من وصمة الضعف والركاكة وظهرت في اللسان
العربي كتبٌ علمية وأدبية تضارع أصولها في صحة تعبيرها وفصاحة ألفاظها
ودقة معانيها

وعادت الترجمة في هذه الكرة بنفع جليل على اللغة العربية ، لأنها
عودت أقلام الكتاب « قصد العبارة » وأن يعنى الكاتب مايقول ويتابع
المعنى باللفظ الذي يؤديه ولا يرسل الكلام إرسالاً بغير قصد مفهوم

وكان الكاتب لا يحسب من البلغاء إلا إذا توخى السجع وحشا كلامه بالقوال المحفوظة من أقوال الأقدمين ، وكان على هذا سجعاً سقيماً واقتباساً يساق في غير موضعه ويند عن السياق الذي وضع فيه ، فبرئت الكتابة العربية من هذه الآفة وتخلصت شيئاً فشيئاً من التقليد، وثابت إلى الطبع الأصيل حسبما يستوحيه الكاتب من معارفه ومشاهداته

وكانت الصحافة مما نقله الشرق العربي عن الغرب فساعدت على سهولة الكتابة وشيوع الكلمات الفصيحة وتعدد أغراض القول ، وكانت العلوم الحديثة والكتب المترجمة من الموارد الفكرية التي وسعت مسارح التأليف والتصنيف وأنشأت طوائف شتى من الأدباء في مذاهب الوصف ودراسة الأطوار النفسية وقصص الواقع والتاريخ

« والقصد » هو الفائدة التي تتلخص فيها النهضة الشعرية كما كان هو الفائدة التي تتلخص فيها نهضة النثر بأنواعه ، بعد احتكاك الشرق العربي بالحضارة الأوربية

فكان الشاعر يقول ما تعود الناس أن يقال لهم في كل مناسبة من المناسبات لا ما يريد هو أن يقول ، وكان على هذا قلما يحسن المحاكاة أو يتجاوز محاكاة البيغاء لما يقع في سمعها من الجمل الجوفاء .

فنشأ الشعر المقصود ، وبرزت ملامح « الفرد » المستقل في دواوين الشعراء ، وقلت القوال المطروقة بمقدار ما كثرت المعاني المطبوعة والأغراض المبتكرة ، وضاعت الأوزان القديمة بهذه الأغراض فنجمت الدعوة إلى

القافية المرسلة والأوزان الحرة ، وتوسع الشعراء في أوزان الموشحات القديمة فأضافوا إليها كثيراً من المجزوءات والأوضاع الحديثة

ومن المقابلة بين ديوان قديم وديوان جديد يتبين التغيير العصرى الذى تجاوز الصيغ والألفاظ إلى الأغراض والموضوعات

فلم تكن للديوان القديم سمةٌ يتميز بها بين الدواوين غير نسبتها إلى ناظمه بالإسم أو باللقب أو بالكنية ، كديوان جرير أو ديوان البحترى أو ديوان أبى تمام ، ولم يكن للقصائد أغراض غير الأبواب الممهودة فى المدح والفخر والوصف والغزل والحكمة والرثاء والهجاء ، ولم يكن للقصيدة عنوان يميزها بين قصائد الديوان الأخرى

فبرزت « الملامح » المعنوية فى الدواوين الحديثة ، وأصبح للديوان اسم يشير إلى فخواه ، وللقصيدة اسم ينم على موضوعها ، وللنظم أغراض فى الرواية والمشاهدات النفسية أو الاجتماعية والرموز الفلسفية أو الفنية ، واعتمد الشعراء على القراء وما يحسونه ويتوقون إلى النظم فيه ، وكان معتمدهم قبل ذلك على الممدوحين وأصحاب الهبات

وتفاوتت الأقطار العربية فى مدى التجديد على حسب تفاوتها فى أسباب المحافظة على القديم . وأقوى هذه الأسباب هو الاقتراب من المناسك أو مواطن البداوة أو جامعات العلم التاريخية ، فهى تمنع التجديد أن ينطلق بغير كامج يشتد أو يلين .

وراجت الفنون الجميلة في الشرق العربي على قدر نصيب الفن من الطبيعة الاجتماعية ، فسبق التمثيل ولحق به الغناء ثم التصوير ، وكان أروج الفنون ما يجمع بين الرؤية والسمع والفكاهة في وقت واحد ، كالعرض (الريفيو أو الاسكتش) والحوار والديالوج . والألقية (المونولوج) لأنها تجمع في المحافل بين التمثيل والموسيقى والرقص في بعض الأحوال ، ولهذا لا تزال صبغة التسلية أوضح وأروع من صبغة الفن المحض الذي يراد لمعناه الرفيع .



ومن المفارقات الصادقة أن الاقتباس من أوبرة عاق فن التمثيل عن بلوغ شوطه في التقدم والأصالة ، لأن أصحاب المسارح استطاعوا تسلية الجماهير بنقل المناظر التمثيلية التي تقوم على المفاجآت والألاعيب المسرحية ، ولا ترجع إلى طبيعة البيئة لتستلهم منها موضوعاتها ونماذجها الشخصية ، ولم تزل آفة التسلية في جميع معارضها أن توكل الفن بالذوق الشائع المبتذل ، وليس هو على الجملة بأفضل الأذواق .

ثم ابتلى التمثيل بمزاحمة الصور المتحركة فأصبح من الميسور أن يعمل في التمثيل السينمائي من لا يحسنون الفن ولا يتكفون جهداً من الجهود الثقافية ، لأن التمثيل السينمائي يجري في عزلة عن النظارة ، ويستطاع تحضير أدواره قطعةً قطعةً في أوقات متفرقة كما يستطاع تصحيح أخطائه كلما وقع الممثلون والممثلات في خطأ منها . فبطلت الحاجة إلى الاتقان ودراسة الثقافة الفنية ،

وتيسر الريح الجزيل مع الخبرة الناقصة والجهد اليسير ، فأصيب الفن الصحيح بجبسة في النمو يحاول الخلاص منها ، ولا تسفر هذه المحاولات بعدُ عن مصيرها .

واستقر الذوق الاجتماعي في الموسيقى والغناء على نبد الألحان القديمة ، لأنها في جمودها وقعودها وغلبة « الثاؤب » عليها لا تلائم حركة الجيل الحديث ، ولكنه عرض عن القديم ولم يخلق له نمطاً مطبوعاً يستقل به عن المحاكاة والتلفيق ، فأصبحت الأغاني الفنية الحديثة ترقيعاً لا يعرف له زى مرسوم .

ومن عجيب ما يلاحظ أن التصوير الشرقي على تأخر ظهوره بين الفنون الجميلة كان أسبقها إلى التقدم والاستقلال ، فنبغ في الشرق العربي مصورون من أصحاب الطريقة المدرسية أو الطريقة الاحساسية يضارعون نظراءهم في الأقطار الأوروبية أو يحسبون من تلاميذهم الجودين ، ولعل هذا الفن قد نشط في طريق التقدم لأنه يستند إلى ثقافة الأفراد سواء كانوا من المصورين أو من طلاب الصور ومشجعيها ، وأذواق الأفراد في جملتها أسبق من أذواق الجماعات .



وحدث ما كان منظوراً أن يحدث من تعديل في طرز البناء وزخارف فن العمارة ، تبعاً لتغير العادات وعوارض العمران . فبعد سفور المرأة لم تعد ثمة حاجة إلى المغالاة في إقصاء زوايا الحريم عن الطرقات العامة والأفنية

المكشوفة ، وبعد المراوح الكهربية وأجهزة التكيف الهوائى لم تعد ثمة حاجة إلى الخواخات والأقبية والمشربيات ولا إلى تغطية السقوف ومداخل التظليل ، وبعد غلاء ثمن الأرض وتقسيم الطرق والميادين تعذر اقتناء الفدادين الواسعة لإقامة القصور فى قلب المدينة ، وكان سرقة القوم يختارون السكن فى قلب المدينة . ليستأثروا بوسط العمار ، فلما انتظمت المواصلات الخاصة والعامة عظم الإقبال على الضواحي النائية وشاعت نماذج « الفيلات » التى اشتق الغربيون اسمها من اسم الريف والخلاء .

ولا يخفى أننا نلم هنا بالخطوط الجملة والخطوط العريضة الناتئة ، ولا نستقصى جميع التفاصيل التى تتشعب هنا وهناك ويقع فيها الاختلاف بين أمة وأمة بل بين إقليم وإقليم فى الأمة الواحدة ، حيثما اختلفت دواعى الحضارة والعمران .

الصحافة

نشر الدعوة السياسية عملٌ من الأعمال التي حدتها الأمة العربية في إبان دولتها الأولى وهي دولة بني أمية . فبلغ الدعاة العباسيون بالدعوة مبلغ الفن المحكم الذي يحاط بجلائله ودقائقه ومبادئه ومراميه، ووضعوا فيه القواعد لاختيار أشخاص الدعاة وعلاقة بعضهم ببعض في درجات الرئاسة أو درجات الزمالة ، ورتبوا فيه مراكز الدعاية وموضوعاتها وما يذاع منها وما يُضن به على غير الخاصة والصفوة المختارة .

وجاء الفاطميون فتمموا هذا الفن من جميع نواحيه ، وقسموا الدعوة إلى دعوة ثقافية ودعوة دينية أو سياسية، وتذرعوا بالفلسفة لإقناع بعض العقول وبالتصوف لإقناع بعض العقول الأخرى ، وجعلوا لهم حلقات حول الدعوة لا تطلع على سر من أسرارها ولا تنفضى إلى غرض من أغراضها ، ولكنها تشايعهم بمودتها فتكون لهم على خصوصهم ، ساعة الفتنة التي يدبرون موعدها ومقدماتها.

ولا بد من التفرقة بين هذا الفن الذي سبقت به الأمة العربية سائر الأمم وبين « المؤامرات » التي كانت تدبر في الخفاء لإقامة دولة وإسقاط أخرى فإسقاط الدول بالمؤامرات الخفية تدير قديم عرفه الطامحون إلى الملك منذ فجر التاريخ الإنساني ، وقامت به الدول في كل أرض وبين كل قبيل ، ولكنها كانت « مؤامرات » للاستطلاع والتأليب وتحيين الفرص وتجنيد

القوى العسكرية والمالية للعمل المفاجيء في الوقت الملائم الذي يرجى فيه النجاح ، ولم تكن دعوة إتناع أو حملة توجيه منظم للفكر والشعور ، فان تاريخ الدول لم يعرف دولة قامت على مثل هذه الدعوة قبل الدولة العباسية والدولة الفاطمية ، ولم تكن في ذلك خارقة ولا داعية للعجب . . . لأن العباسيين والفاطميين كانوا يعتمدون في مطالبتهم بالخلافة على الحجة الدينية والفتاوى الشرعية. فلا بد لهم من كسب الشعور وكسب العقول، ومن التوسل إلى ذلك بالدعوة المقنعة ، مع الاستعداد للأمر بعدة الأسلحة والجيوش .

فالدعوة السياسية — أو فن النشر — قد كانت معروفة قبل ظهور هذا الفن في أحدث صوره العصرية وأروجها وأقواها ، وهي الصحافة الدورية ولكن الصحافة مع هذا « توليد » عصرى لم يكن من المستطاع أن يوجد قبل أوانه الذي وجد فيه، وإن كثرت الحاجة قديماً إلى الدعوة والدعاة فليس من المستطاع أن توجد الصحافة قبل عصر المطبعة السريعة التي تطبع الالوف من النسخ في كل يوم ، وقبل عصر الأنباء البرقية التي تجعل الاهتمام بقراءة الصحيفة منتشراً في نطاق واسع بين جمهور كبير يتشوق إلى مطالعة تلك الأنباء ، وقبل وسائل المواصلات التي تتكفل بتداولها في أوانها وقبل اختراع الصور الشمسية التي تثبت الوقائع وتمثلها وتعرض للقراء فنونا من الملامح والأشكال للتسلية أو للتوضيح .

وإذا توافرت هذه الأدوات جميعها فلا بد معها من الأداة الكبرى التي هي أكبر وألزم لرواج الصحافة من كل أداة ، ونريد بها أداة الجمهور الذي

يعرف القراءة ويدخل في حساب الصحفيين والساسة والكتاب .

قبل وجود هذا الجمهور لا توجد الصحافة بحال ولا تدوم إذا وجدت بمحض الاتفاق. وقد أصبحت الصحافة مختزعا لازما يوم أصبح الجمهور قواما للدولة أو أصبح كما يسمونه في العصر الحديث « رأيا عاما » وأصبح « الرأي العام » مصدر السلطات والقوانين .

وانتقلت الصحافة من أوربة إلى الشرق العربي بعد أن تمهدت لها جمع هذه المقدمات .

انتقلت إليه بخيرها وشرها ، فاستفاد من خيرها كثيرا وابتلى من شرها بكثير ، ولا يزال يبتلى بها ويستفيد .

فمن خيرها ولا شك أنها كانت وسيلة فعالة سريعة الفعل في نشر المعرفة العامة وبث الدعوات القومية واستنهاض العزائم لمكافحة السيطرة الأجنبية وترقية اللغة ودوام التقريب بين لغة العلم والأدب ولغة البيت والسوق .

ومن شرها ولا ريب أنها شغلت الناس بسفساف الأمور وطلبت الرواج والانتشار بأثارة الفضول وتزويد القراء بما يرضيهم دون ما ينفعهم من الآراء والأنباء ، وأنها سلمت زمام الجماهير لمن يستطيع أن يشتري أعلامها أو يسخرها ، وأن الاقبال عليها يصرف القراء عما هو أفضل منها وأولى بالانصراف إليه من أنواع المطالعة والتحصيل المفيد .

ومهما يكن من مأخذ الصحافة عندنا وعند غيرنا فهي مأخذ لا تخلقها الصحافة ولا ترجع اللأئمة فيها على الصحافة وحدها . لأنها بضاعة لا تنفق

مالم تطلبُ ويكثر الإقبال عليها ، وإن كانت الصحافة تزيد الإقبال بالترغيب والترديد .

وبنية الأمة التي تروج فيها الصحافة هي المسئولة عن شرورها وهي المطالبة بخلق الترياق الذي يدرأ سمومها ويحتفظ بفضائلها الصالح السليم .
والذي تبين من تجارب الأمم الغربية أنها أخذت تقسم الصحف عندها إلى قسمين تتسع الفجوة بينهما عاما بعد عام. وهما قسم التسلية وقسم المراجعة والدراسة . ومن المشاهد المتواترة في أوربة وأمريكا أن صحف التسلية تطبع الملايين في اليوم الواحد ولكنها لا تؤخذ مأخذ الجد والتوقير ولا يحفل الناس ماذا تقول وماذا تبدي من الآراء ، وأن صحف المراجعة والدراسة محدودة القراء أو محدودة النطاق في الأقاليم ولكنها مرجع معول عليه في تكوين الأفكار وتلقي المعلومات .

إلا أن الصحيفة المسلية قد تنفع قراءها بالتأثير « الآلى » ولا تهتم بالتأثير « الأدبي » إذا ضمنت الرواج .

ومعنى ذلك أن الخبر الذي يتلقاه ثلاثة ملايين من القراء وتتوخى الصحيفة وقته المناسب وصيغته الشائقة وهدفه المقصود لن يخلو من أثر يصيب المصالح العامة ويُشيع القلق في النفوس ويصنع السياسة الحسنة بما يشوهها كما يصنع السياسة الشائبة بما يزخرها ويحببها إلى الأنظار ، ولا مبالاة في هذه الحالة بمكانة الصحيفة وكتابتها في قلوب القراء ، لأن الأثر « الآلى » يسلك سبيله إلى ملايين القراء بمعزل عن الأثر الأدبي الذي

يستقبلونه بالحذر أو الإعراض إذا صيغ لهم في قالب النصيحة والتوجيه .
ولا نعلم اليوم كيف يحل الغرب والشرق مشكلة الصحافة في الجيل
القادم ، ولكننا نستطيع أن نعلم ماذا يكون إذا سارت الأمور على استقامة
وصلاح ، وماذا يكون إذا سارت على نقيض الاستقامة والصلاح .
فإذا بقي التأثير الآلى مقرونا بالرواج والقوة فهو خطر وويل العواقب
قد يربى على جميع ما ابتلاه الناس من أخطار الدعاية في أطوار التاريخ
وإذا خيف من الشر أن يبلغ مداه فقد تعصم منه الإنسانية بالتريق
الوحيد الذى يجدى عليها في هذه الحالة ، وهو إسقاط « الدعاية الآلية »
من كل حساب ، والفصل بين صحافة التسلية وصحافة الرأى بفصل منيع
لا يأذن لجانب الخطر أن يطغى على جانب الأمان . وقد يكون في ذلك
باب للخير الشامل يوفض منه بنو الإنسان إلى عالم جديد . لأنهم يعرضون
عن « الآلية » بعد استنفادها والانتهاى بها إلى غايتها القصوى ، ولا يقيمون
وزنا لغير رسالة الروح إلى الروح وتوجيه الفكر للفكر ، وعقيدة الإنسان
في إمامة الإنسان .

إجمال

غنى عن القول أن البلاد الشرقية تلقت دروساً كثيرة في العلوم والصناعات التي تسمى أحياناً بعلوم أوربة وصناعاتها ، إما في مدارس أوربة نفسها وإما في المدارس الشرقية التي أنشئت على غرارها . وهذه حقيقة واقعة غنية عن الإفاضة في شرحها لأنها مفهومة بطبيعتها ، ولأن المهم عندنا في تسجيل آثار الحضارة الأوربية في الشرق هو الآثار النفسية التي كان لها مساس بروح الشرق وضماؤها وأبنائه ، ولنا من يرون أن العلوم والصناعات المنقولة كان لها في ذاتها مثل ذلك الأثر . إلا من طريق الخطأ في فهمها واستخلاص مراميها ، لأنها تدخل في حيز المنقولات العقلية والمنقولات الآلية التي لا تستتبع بعدها انقلاباً خطيراً في عالم الروح وسرائر الوجدان .

وعلى سبيل التفسير لهذا الرأي نرجع إلى القول بكروية الأرض ودورانها . فهذا القول لم يكن بالجديد على الثقافة الشرقية ، ولكن الأدلة الحسية لم تكن مثبتة له في تصور الدهماء وأشباه الدهماء من أصحاب المعلومات القاصرة ، فاستطاع الجهلاء أن ينكروه وأن يلصقوا إنكاره بما فهموه من ظواهر النصوص الدينية . فلما جاء القول بكروية الأرض ودورانها عن طريق الغرب وجاءت الكشوف الجغرافية بما يثبت هذا القول القديم أخطأ الجهلاء فهم الدين ، وفهم العلم الحديث ، زمناً سرى فيه

الشك إلى ضمائر المتعلمين ، ولم يسع هؤلاء المتعلمين إنكار كروية الأرض أو إنكار دورانها ، وظل هذا الشك سارياً إلى أن قرت الحقيقة العلمية في نصابها وعجز الجهلاء عن مقاومتها بالنصوص الدينية ، فزال العارض الذي أصاب الضمائر من خطأ الفهم وخطأ التأويل .

وهذا الذي عيناه بقولنا إن العلوم والصناعات لم يكن لها مساس جوهرى بالحياة الروحية في البلاد الشرقية ، لأنها قد استطاعت أن تستقر في حيز المعارف العقلية أو المعارف الآلية دون أن تقلق بواطن الضمير والأولى عندنا أن يقال إن الحياة الروحية في البلاد الشرقية قد تأثرت من طريق ظواهر المعيشة ومن طريق المذاهب الفكرية ، ولم تتأثر مباشرة من طريق العلم أو الصناعة

فظواهر المعيشة التي حملها الأوربيون معهم إلى بلاد الشرق العربي قد نشرت معها جواً من الإباحة الفعلية والاستخفاف بالقيود الأخلاقية الموروثة ... فقلَّ الحرج من سماع الآراء الطارئة وتوجيه النقد إلى الشعائر المرعية ، وكان أثر هذا كله في الحياة الروحية أعمق جداً من كل أثر سرى إلى الضمائر من معارف العلم والصناعة

أما المذاهب الفكرية التي لامست عالم الروح في الشرق فهي من قبيل مذهب النشوء والارتقاء ومذهب نيتشه ومذهب التفسير المادى للتاريخ وفلسفة المقارنة بين تواريخ الأديان ، وهي — على أقوى ما نلاحظه من آثارها — لم تتجاوز أثر الفلسفة القديمة ولا مذاهب الشيع المعتزلة التي

شغلت عقول المشاركة في أواسط الدولة العباسية وما بعدها ، وقد كانت آثارها هذه فرديةً لاتتعدى المئات من المفتونين بها إلى ضمائر الجماعة بأسرها ، وكان جملة المفتونين بها ممن يتلقفونها ويتخطفون عناوينها ولا يحيطون بأسرارها ومضامينها ، وكانوا في الزمن القديم كما كانوا في الزمن الحديث على غرار الآخذين بمذهب النشوء والارتقاء ممن خيل إليهم أن هذا المذهب قد حل مشكلة الوجود . . . وهو في جوهره على التحقيق لم يزد على أن جعل « خلق الإنسان والحيوان » مسألة ملايين من السنين بدلا من مسألة ألوف ومئات ؛ ولم يلمس قط سر الخلق الأبدى الذي لا يزال بابا مفتوحاً للتفكير والاعتقاد ، بعد كل ما قيل في مذهب النشوء والارتقاء .

فالمذاهب الفكرية التي أشرنا إليها لمست روح الشرق في نطاق الأفراد المعدودين ، ولمسته في هؤلاء الأفراد لمساً عاجلاً قريباً لا يستأصل جذور اليقين ، إلا ما كان من هذه الجذور قريب الاستئصال والمهم فيما بقي بعد هذا من آثار الحضارة الأوربية على بلادنا وشعوبنا هو الذي عرضنا له في الفصول السابقة ، ويتلخص في انتباه الشرقيين إلى فهم الدين وفهم الوطنية وفهم العلاقة بين الفرد وبين الله والعلاقة بين الفرد والدولة فهماً يتحدى أساطير الجمود ومخلفات الجهالة في عصور الضعف والاضمحلال .

وننتهى بالبحث كله إلى عبرتين خالدتين : أولاهما أن الأمم الشرقية

والغربية جميعها دائنة ومدينة في تراث الحضارة الإنسانية ، وأنه ما من أمة لها تاريخ مجيد إلا وقد أعطت كما أخذت من ذلك التراث

وثانية العبرتين أن الأمم تستفيد في باب الحضارة على الرغم منها وعلى الرغم ممن يفيدها . فالمتعمرون الغربيون لم يقصدوا تعليم الشرقيين حرية الأوطان ولكنهم تعلموها وهم ناقدون ، والشرقيون قد شحذوا السلاح الذي ضربتهم به يد الاستعمار ؛ وأصيبوا به قبل أن يعرفوا كيف يصيب .

« وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

« وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

فهرس

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع
١٠٩	أحوال الحضارة	٣	تمهيد
١٢٠	الدولة والنظام	٥	من هم العرب؟
	أثر أوربة الحديثة في النهضة	٩	العقائد السماوية
١٢٧	العربية	١٤	آداب الحياة والسلوك
١٢٨	سداد الديون	١٧	التدوين
١٣١	الاجتماع والسياسة	١٩	صناعات السلم والحرب
١٤١	الحكومة البرلمانية	٢٤	الأصل والنقل
١٤٧	الوطنية	٣٠	الطب والعلوم
١٥٣	الحركات الدينية	٤٤	الجغرافيا والفلك والرياضة
١٥٩	الأخلاق والعمادات	٦١	الأدب
١٦٢	الأدب والفن	٧٠	الفنون الجميلة
١٦٨	الصحافة	٧٨	الموسيقى
١٧٣	إجمال	٨٤	الفلسفة والدين